الفصل الأول

حملات الملك عموري على مصر حتى عام١١٦٧م/٥٦٢هـ

- ملامح من حياة عموري الخاصة ودوره السياسي قبيل تتويجه ومشاكل اعتلائه العرش.
- الحملة الأولى (١١٦٣م/٥٥٨هـ).
- الحملة الثانية (١١٦٤م/٥٥٩هـ).
- الحملة الثالثة (١١٦٧م/٥٦٢هـ).

قاد الملك عموري عدة حملات ضد مصر بصفته مساعداً لوزيرها شاور وحليفاً له ضد شيركوه قائد نورالدين، وقد انتهت المرحلة الأولى من تلك الحملات عام ١١٦٧م/٥٦٢هـ بتحقيق عموري بعض المكاسب في مصر ربما كانت قمة ما وصل إليه من نجاح فيها، ولعل أهم ما يميز حملات هذه الفترة عن مثيلاتها أن عموري كان ملبياً لنداء شاور ضد شيركوه، وذلك باستثناء حملته الأولى عام ١١٦٣م/٥٥٨هـ التي

obeikandl.com

لم يكن لها أصداء حملاته الأخرى على مصر، وعليه فقد أفرد الباحث هذه الحملات في هذا الفصل وقدم لها بالحديث عن شخصية الملك عموري ودوره السياسي قبيل اعتلائه العرش إضافة إلى إيضاح نوع المشاكل التي اعترضت تتويجه.

يُعَدّ عموري - على المستوى الشخصي - من الشخصيات المميزة والمحيرة التي حكمت المملكة، وتنبع الحيرة عن أوحدية المصدر الذي يُعالج عصره، بحيث يوجد في وصف وليم الصوري لشخصية عموري بعض التناقض المقرون بالحب والتحيز، يجد معه الباحث صعوبة في الدخول إلى عقلية عموري؛ وذلك من أجل التعرف على الدوافع التي تصرف على أساسها في سياسته الخارجية.

وعموري هو الابن الثاني للملك فولك دانجو، وُلد عام ١١٣٥م/٥٢٩-٥٣٠هـ وأصبح كونتاً ليافا ثم ليافا وعسقلان معاً عام ١١٥٤م/٥٤٩هـ في ملكية أخيه الملك بلدوين الثالث، وقد تزوج عموري للمرة الأولى قبل أن يعتلي العرش من آنْيَاس دو كورتناي ابنة جوسلين الثالث كونت الرها، وذلك برغم معارضة فولشر بطريرك بيت المقدس، بسبب صلة القرابة التي تربط عموري بآنْيَاس، كما كانت آنْيَاس أرملة لرينالد صاحب مرعش قبل زواج عموري منها، بحيث كان عموري يصغرها بكثير حينما تزوجها، وأثمر هذا الزواج عن إنجاب بلدوين الرابع الذي سيصبح ملكاً فيما بعد إضافة إلى ابنة أخرى تدعى سبيلا.

و ينم وصف وليم الصوري للكونت عموري عن تمتعه "بالحصافة والرشد والخبرة بالشئون الدنيوية....وتفوقه على جميع أشراف المملكة في حدة الذكاء وحضور البديهة، فساس الأمور بحزم وفطنة أبان الأزمات الكثيرة التي وقعت في أثناء محاولاته القوية المستمرة لمد حدود مملكته.."وهو كثيرُ الصمت، باردُ الأعصاب، لا يهتم لمن يسبه - وإن كان من أدنى الناس - شجاعاً وجريئاً في معاركه، بارداً وحاسماً في قيادته، وقد اكتسب من مداومته لقراءة التاريخ خبرة بمشاكل الشرق وسياساته. وبالرغم من طباعه العادية في الطعام والشراب فإنه كان مفرطاً في السمنة ومتوسطاً في الطول، ومغرماً بالمطاردة والصيد والمطالعة، بيد أنه لم يكن في عذوبة

معشر أخيه بلدوين الثالث أو دماثة خلقه[1].

ويصف إرنول عموري بأنه " كان رجلاً رشيداً وحكيماً وفارساً جيداً[2]"، على حين رأى فيه الرحالة فيلكس فابريFelix Fabri رجلاً "يتصف بالحكمة الدنيوية ربما ليس مثقفاً ثقافية عالية بيد أنه كان حكيماً وحذراً في عمله ووهبه الله عبقرية وذاكرة قوية، وربما لا يمكن نكران أنه كان جشعاً في حبه للمال بيد أنه كان جباراً في الحرب[3]"، أما المؤرخون المسلمون - وعلى رأسهم ابن الأثير - فقد أطلقوا عليه "مُريّ" وكان من رأيهم فيه أنه "لم يكن للفرنج منذ ظهروا بالشام مثله شجاعةً ومكراً ودهاءً[4]"، وهنا تكمن بعض سمات التناقض أو عدم الوضوح فيما كتبه وليم الصوري عن مليكه[5]، بحيث لا يكاد يُطالع وصفاً مثل وصف ابن الأثير السابق لديه، بل ربما يُطالع في كتاب وليم الصوري بعض محاولاته لتبرير معظم سياسات عموري وتصرفاته أو الدفاع عنه، بإلقاء التهم على من حول عموري وتحميلهم مسئولية بعض نتائج تصرفاته التي لم تكن في موضعها أو كان من الممكن تجنبها، وقد يلجأ إلى أسلوب المرواغة في إطلاق أحكام عامة دون أن ينسبها إلى عموري بشكل مباشر ولكنه يضع في معنى روايته ما يؤكد مسئولية عموري.

---

(1) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٧-٢٠. وانظر أيضاً:

Baldwin, *The Latin*, p.548.

(2)Ernoul, *Chronique*, p.18.

(3) Fabri, *The Book of Wandering*, p.328.

أما عن ثقافة الملك عموري فالراجح أنه استفاد من المكتبة التي ورثها عن أخيه بلدوين الثالث التي يرجح احتوائها على كتب الأمير أسامة بن منقذ التي استولى عليها من المركب الذي أقلّ أسرة أسامة من مصر إلى بلاد الشام، وكانت تقدر بأربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة في الآداب والعلوم الأخرى. انظر: أسامة بن منقذ: الاعتبار، ص٣٤-٣٥.

(4) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٩٥. وأيضاً: ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص٣٩٠؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٣٩٠.

(5) والواقع أن وصف وليم الصوري للملك عموري وجل ما كتبه عنه مهم للغاية سواء في إثبات ما للملك عموري أم ما عليه؛ وذلك لأن وليم الصوري كان يعد نفسه صديقاً لعموري، وقد صرح بأنه هو الذي كلفه بكتابة تاريخه عن المملكة والصليبيين، ناهيك عن ذلك معاصرة وليم الصوري لهذه الأحداث واطلاعه المباشر على وثائق المملكة وأرشيفها ومكتباتها.

هذا ما له أما ما أخذوه عليه فتمثل في أنه لم يحظ بشعبية أخيه بلدوين الثالث "إذ كان ينقصه المزاج اللطيف مع ندرة كلامه، كما تعوزه البشاشة التي ربما كان الأمراء أكثر احتياجاً لها من بقية الناس كي يكسبوا حب رعاياهم، فضلاً عن عدم محاسبته لرجاله مدعياً أنه يثق بهم[١]"، بل ربما كان يستفز الشعور العام أحياناً بتعيينه رجالاً لا يستحقون أن يعينوا في مناصب رفيعة[٢]. ومن الوجوه الأخرى التي يرى فيها الباحث شيئاً من عدم الوضوح والتباين في وصف وليم الصوري للكونت عموري نعْتِهِ له بأنه كان ابناً باراً بالكنيسة وأنه اعتاد أن يؤدي لها ضريبة العشور، ثم يردد بعد ذلك أنه ناهض حرية الكنائس، بحيث اشتكى الكهنة من انتهاكه غير القانوني لحقوقهم وممتلكاتهم، ولم تكن الضرائب التي فرضت على الممتلكات مقبولة، ومرة أخرى يبرر وليم الصوري مسألة الضرائب - على لسان عموري - بأنها كانت للضرورات الحربية[٣].

وفيما يتعلق بدور عموري السياسي قبيل اعتلائه العرش فيُشار إلى ملمحين كان لهما فيما بعد أثر غير مباشر في سياسته الخارجية؛ إذ كان عموري كونتاً لمدينة يافا في سن صغير - ربما قبل الخامسة عشرة من عمره - حيث أقطعه إياها أخوه الملك بلدوين الثالث بعد أن نصبه فارساً عام ١١٥١م/٥٤٦هـ[٤]، وحينما قامت الحرب

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٨.

(٢) ومن هؤلاء الأشخاص ميلو دو بلانسي رئيس موظفي بلاط الملك عموري الذي كال له وليم الصوري العديد من التهم مريحاً بذلك كاهل عموري من مسئوليته عنها. وميلو دو بلانسي شخص طائش غير رزين، أعطاه عموري حصن مونتريال وقد ورد ذكره في إحدى وثائق المملكة منذ عام ١١٦٨م (انظر في ذلك:Rohricht, *Regesta*, no. 452) حال تعيينه موظفاً كبيراً في البلاط بتاريخ ٢٠ من أغسطس١١٦٩م (راجع:Rohricht, *Regesta*, no.466) ثم ظهر بدون هذا اللقب منذ عام ١١٧٣حتى ٣ من يوليو ١١٧٤. انظر:

Rohricht, *Regesta*, no. 417,415 488; Roziere, *Cartulaire*, pp.227-229, no.124.

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٩.وانظر أيضاً:

Baldwin, *The Latin*, p.548.

(٤) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٣٣٤، جـ٤، ص١٨؛ جاك دي فيتري: تاريخ بيت

الأهلية بين الملك بلدوين الثالث وأمه الملكة ميليسيند (١١٤٩-١١٥٢م) فقد اتخذ عموري جانب الملكة ميليسيند؛ لأن يافا كانت ضمن الأماكن الخاضعة لسيطرة الملكة.

ولا يذكر وليم الصوري شيئاً محدداً عن أي دور للكونت عموري خلال أحداث الاستيلاء على عسقلان عام ١١٥٣م/٥٤٧هـ، وإن حصل على نصيب الأسد فيما وزعه الملك بلدوين من الأراضي التابعة لعسقلان في الجنوب عقب الاستيلاء عليها عام ١١٥٣م؛ إذ منح بلدوين عسقلان لعموري أيضاً مضافة إلى يافا[١]، ويُظهر تصرف الملك بلدوين الأخير أنه لم يعاقب عموري على مشاركته لأمه في أحداث الحرب الأهلية ضد الملك ذاته؛ إذ ذُكرَ عموري كونتاً ليافا في وثيقة للملكة ميليسيند[٢]، كما يُشارُ إلى عموري على أنه كونتاً لها أيضاً خلال زيارته للإمبراطور مانويل أمام أنطاكية عام ١١٥٩م/٥٥٤هـ ومرة أخرى في أثناء تعميده لابنه بلدوين الرابع عام ١١٦١م/٥٥٧هـ[٣]، لكنه ذُكر بعد عام ١١٥٣م/٥٤٨هـ بقليل بوصفه كونت عسقلان فقط بدون يافا مما يعني أنه حُرم من كونتية يافا في ذلك الوقت.

ولكن لا يبدو ذلك دقيقاً؛ لأن عموري منح امتيازات في يافا عام ١١٥٧م/٥٥٢هـ[٤]، مما يعني أنه كان كونتاً ليافا في ذلك العام، أي أنه استردها مرة أخرى، بيد أن وليم الصوري لم يحدد الوقت الذي منح فيه الملك بلدوين لأخيه الكونت عموري عسقلان، ومن جهة أخرى أشار وليم إلى قيام الملك بلدوين بتوزيع الأراضي حول عسقلان بنفسه عقب استيلائه عليها عام ١١٥٣م/٥٤٨هـ، وهى المهمة التي ينبغي أن يقوم بها عموري إذا ما كان كونتاً لها، لذا فالراجح أن الملك بلدوين لم يُقطعه

المقدس، ص٦٢.

([1]) Ernoul, *Chronique*, p.14.

([2]) Rohricht, *Regesta*, no. 359.

([٣]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٣٧٢،٩٥، ٤٣٣، ٤٢٢.

([4]) Rohricht, *Regesta*, no. 324;Müller, *Documenti Sulle Relazioni Delle Citta Toscane Coll ' Oriente Cristiano e coi Turchi Fino all' anno*, MCXXXI (Florence, 1879, Rome, 1966), p.8, no.6.

عسقلان بعد الاستيلاء عليها مباشرة، ومن جهة أخرى أشُير إلى عموري في إحدى وثائق المملكة عام ١١٥٤م/٥٤٩هـ بوصفه شقيق الملك *Amalricus "Frater Regis"*[١]، وهنا يؤكد ماير أنه لابد من قبول افتراض أن عموري الذي أشير إليه قبل عام ١١٥٢م/٥٤٧هـ - وهو العام الذي حدثت فيه الحرب الأهلية بين الملك بلدوين وأمه التي وقف عموري إلى جوارها ضد الملك - بوصفه ابن الملكة " Filius Reginae" ثم بوصفه كونتاً ليافا، أنه قد خسر الأخيرة عام ١١٥٢م/٥٤٧هـ، ولم يستردها إلا بعد عام ١١٥٤م/٥٤٩هـ، كما أنه لم يحصل على يافا في الوقت ذاته الذي حصل فيه على كونتية عسقلان، ويؤكد ماير ذلك بإشارته إلى وثيقة مؤرخة في ٣٠ من يوليو ١١٥٤م/١٧من جمادى الأولى ٥٤٩هـ تشير إلى استعادة عموري ليافا ثم أضيف إليها عسقلان، وقد أشار إرنول - المطلع على بواكير القرن الثالث عشر- إلى ما يؤيد ذلك، حينما أقر أن عموري تسلم كلاً من يافا وعسقلان عقب استيلاء بلدوين الثالث على عسقلان وذلك في وقت ما من عام ١١٥٤م/٥٤٩هـ[٢]، وليس كما هو معتقد شائع عام ١١٥٣م/٥٤٨هـ، ومن ثم فقد عانى الكونت عموري لفترة قصيرة من الغضب الذي سببه لأخيه الملك بلدوين الثالث بوقوفه في صف الملكة ضد الملك[٣].

أما الدور المهم الآخر الذي ظهر به عموري على مسرح الأحداث قبيل تتويجه فممثل في قيامه بزيارة الإمبراطور مانويل في قيليقية عام ١١٥٩م/٥٥٤هـ، ولاريب أنها المرة الأولى التي رأى فيها الكونت عموري الإمبراطور البيزنطي الذي استقبله بما يليق به وعندما انتهت زيارته رده الإمبراطور محملاً بالهدايا[٤]. وهنا ربما لم يكن

([1]) Rohricht, *Regesta*, no. 293.

([2]) Ernoul, *Chronique*, p.14.

([3]) Mayer, "Studies in the History of Queen Melisende of Jerusalem", *DOP*., XXVI, 1972, reprinted in *Studies in the History of the Crusading Kingdom of Jerusalem presented to Joshua Prawer*, (Jerusalem, 1983), pp.175-176, 182.

([٤]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٤٣٣. وكذلك:

Smbat, La Chronique, pp.45-46.

عموري يعرف ما تنطوي عليه الأيام وأنه سيصبح يوماً ما ملكاً على مملكة بيت المقدس، بيد أنه لمس الترف البيزنطي والدبلوماسية العتيقة التي تمتع بها عاهلها، وعليه فإن هذين الملمحين أهم ما في تاريخ عموري، وجوده في يافا وتصديه للمسلمين خلال وجودهم في عسقلان قبل عام ١١٥٣م/٥٤٨هـ ثم بوجوده في عسقلان ذاتها عقب استيلاء الملك بلدوين الثالث عليها، وزيارته للإمبراطور البيزنطي في سهول قيليقية، وهما ملمحان ربما كان لهما أثر في إلهام عموري بأساس ما لسياسته الخارجية.

وعن اعتلاء عموري للعرش فإنه حينما مات الملك بلدوين الثالث في العاشرمن فبراير ١١٦٣م/الخامس من ربيع الأول ٥٥٨هـ دون أن يترك ابناً يعقبه في الملكية كان أخوه الكونت عموري المرشح الشرعي الوحيد لخلافته على العرش[١]، وقد ألمح وليم الصوري إلى حدوث مشكلة كبيرة في المملكة ارتبطت باعتلاء عموري للعرش إذ جاء في مصدره "أدى اعتلاء عموري العرش بعد موت أخيه بلدوين إلى ظهور شقاق كبير بين بارونات المملكة.....والحق أن هذا النزاع أوشك أن ينتهي إلى تصدع حاد كاد يطغى على خطر الانشقاق الديني[٢]".

ويُوحي هذا الوصف بحدوث مشكلة كبيرة كادت أن تؤدي إلى حرب أهلية، على ما قال وليم الصوري، وهو بالطبع وصف مبالغ فيه، ويبدو أن وليم الصوري كان الوحيد الذي انفرد بذكره لهذا النزاع ثم أخذه عنه المذيلون عليه وغيرهم من مؤرخي القرن الثالث عشر أمثال إرنول، وعلى الرغم من إرجاع وليم الصوري سبب النزاع إلى البارونات المتذمرين "الذين كان تغير الملوك ذا أثر عنيف يختلف في الواحد منهم عن الآخر"، وهى تُعد سابقة ربما لم يُسمع عنها عند تتويج من سبق الملك عموري فقد حرص المذيلون على وليم الصوري على الربط بين الشقاق الذي حدث

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، حـ٤، ص١٥. وانظر:
Amalrici, Hierosolymorum Regis, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.36-37; Ernoul, *Chronique*, p.16; Fabri, *The book of Wandering*, p.328.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، حـ٤ ، ص١٦.

وبين ضرورة تطليق الملك لزوجته آنْيَاس دو كورتناي التي لم تكن محمودة السمعة في عفتها[١]، وأضاف إرنول إلى الرواية تعليلاً جديداً لأسباب الطلاق ممثلُ في أن آنْيَاس لم تكن مولودة في مدينة شريفة مثل مدينة بيت المقدس[٢] وهي ظاهرة أخرى تستحق التوقف عندها.

ولكن أين حقيقة ما حدث فيما ورد لدى هؤلاء الذين أرّخوا لعصر عموري فيما يخص هذه المشكلة؟ تكمن الإجابة في نقد الآراء السالفة وتقييمها بحيث تؤدي إلى الأخذ بمسار الأحداث إلى وضعها الصحيح. ففيما يتعلق بما ذكره المذيلون على تاريخ وليم الصوري بأن آنْيَاس لم تكن محمودة في عفتها كسبب لموضوع الطلاق[٣] فإنهم بعدوا أكثر فيما نقلوه أو أنهم ربطوا بين رواية وليم الصوري بشأن الطلاق وبين ارتقاء عموري العرش، ولاريب أنهم أغفلوا أن وليم الصوري نفسه لم يذكر الطلاق كأحد أسباب اعتراض البارونات وإنما كان الاعتراض نابعاً عن البطريرك الذي سبق وعارض هذه الزيجة، والأكثر أهمية عدم ربط وليم صراحة بين طلاق آنياس وتتويج عموري[٤].

ومن ناحية أخرى فإن مسالة العفة قرينة أخرى اعتادت رواية ذلك العصر على إيرادها في تبرير مثل تلك القضايا وهي تشبه إلى حد ما القصة التي شاعت عن ميليسيند أميرة طرابلس خلال أزمة رفض الإمبراطور مانويل لها، وهنا صار طلاق آنْيَاس ضرورة سياسية لاعتلاء عموري العرش الصليبي، وإن كان ثمة تحفظ على كثرة زيجات آنْيَاس التي لم يمض كثيرُ على طلاقها من عموري حتى تزوجت للمرة الثالثة من جيرارد سيد صيدا ثم طُلقت مرة أخرى وكان سبب الطلاق هو نفسه الذي جعل عموري يطلقها، أي درجة القرابة التي تحرّمها الكنيسة، وبالرغم من كل هذا فإن وليم الصوري لم يتهمها في عفتها وهو أمر كان من اليسير عليه تقصيه؛ لأنه تقصّى

---

(١) مجهول: ذيل وليم الصوري، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٢٢.

(2) Ernoul, *Chronique*, p.16.

(٣) مجهول: ذيل وليم الصوري، ص٢٢.

(٤) وليم الصوري: الحروب الصليبية، حـ٤ ، ص٢٣.

بنفسه في درجة القرابة وتأكد من صحتها[١].

ومن ناحية أخرى فإنه ليس ثمة أساس لما ذكره إرنول عن طلاق الملك لآنْيَاس على اعتبار كونها لم تكن وليدة مدينة شريفة مثل بيت المقدس[٢]، وهو أمر جديد لم يكن عُرفاً مسلّماً به في زواج الملوك الذين سبقوا الملك عموري، فلم تكن زوجة بلدوين الثالث سوى أميرة بيزنطة ولكنها كانت تمت بصلة قوية إلى البيت الإمبراطوري[٣]، بينما كانت زوجات بلدوين الأول والثاني أرمنيات محليات[٤]، أما الملكة ميليسيند زوجة فولك فإنها الاستثناء الوحيد حتى عصر عموري التي وُلدت في بيت المقدس وهي أول ملكة لاتينية تُولد في الشرق الصليبي، ومن ناحية أخرى فإن آنْيَاس كانت من أسرة نبيلة هي أسرة كورتناي التي حكمت الرها ردحاً من الزمن، مما يجعلها أفضل من غيرها في انتمائها إلى هذا النسب ومن ثم فإن التمسك بفكرة أنها لم تكن وليدة مدينة شريفة مثل بيت المقدس يُعدّ مجرد حجة واهية يصعب إقرارها.

ولا يتبقى الآن سوى رواية وليم الصوري وهى في اعتقاد الباحث متناقضة من الناحية الظاهرية، فهو يشير إلى حدوث مشكلة كبيرة كادت تصل إلى حد الانقسام الديني، ولعله كان يقصد بذلك ما يحدث في الغرب الأوربي من صراع بين البابا ألكسندر الثالث ومنافسه البابا أوكتافيان، أما التناقض فهو أن يُحلّ هذا الإشكال الكبير – حسب قول وليم الصوري - في ثمانية أيام فقط وأن جانباً كبيراً من البارونات كانوا يحبونه هم ورجال الدين، فمن الذي تمرد عليه إذن؟ لقد كان وليم الصوري في وضع حرج للغاية كي يذكر ما حدث بالفعل، فهو من ناحية صديقاً للملك عموري ومؤرخه ومعلم ابنه، ثم مستشار الملك بلدوين الرابع -ابن آنْيَاس وعموري- فيما بعد، ولم يُقدَّر في المملكة إلا في عصري هذين الملكين أي أنه كان أسير فضليهما عليه، ولذا فالمرجح أنه حاول التلميح إلى شيء ما غير محدد بخصوص آنْيَاس وعموري ربما تحرج من ذكره علناً ثم ترك البقية لعقل قارئه.

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، حـ٤ ، ص٢٣-٢٥.

(2) Ernoul, *Chronique*, p.16.

(3) Kinnamos, *Deeds*, p.160.

(4) Aharon Ben-Ami, *Institutional Lag*, pp.411–413.

وقد يُستَشف أمر آخر ربما كانت له علاقة بما قام به البارونات من مناوئة لتتويج عموري، ويُرجح الباحث هنا أن عموري حرص منذ البداية على إبداء مرونته في شكل عملي حينما استجاب لرغبات البارونات المتمردين بتطليقه لآنْيَاس، ولكن لماذا؟ لأن العرش الصليبي كان مقروناً في المملكة بالانتخاب المرتبط بدعاوى الوراثة[١]، وقد حاول البارونات استخدام حقهم بوضع شروط خاصة لانتخاب الملك، ولما كانت فرصة عموري في العرش مرهونة بمسألة تطليقه آنْيَاس التي أثارها البطريرك - لا البارونات - دون أن تتطور الأزمة إلى صراع حاد لا تكاد تسمح به الظروف المحيطة بالمملكة فإنه فضّل أن يبدأ فترة حكمه بداية مرنة، وبخاصة أنه كان في سن السابعة والعشرين حينما رُشّحَ للعرش الصليبي، وعلى حد تعبير وليم الصوري أفسد عموري نساءً متزوجات قبيل اعتلائه العرش[٢]، ولم يكن لديه ما يجعله يتمسك بزوجته التي تُوفي أول زوج لها ولم يتعدَّ عمر عموري وقتها الثالثة عشر بعد[٣].

أما موقف البارونات فمجرد محاولة من بعضهم بوصفهم يشكلون جزءاً مهماً في المحكمة العليا؛ لإظهار شيء من النفوذ في تلك الظروف الحرجة وهم يعلمون جيداً أن عموري لن يرفض طلباً كهذا ثمناً لعرش المملكة[٤]، وكان رد فعل عموري ذكياً في محاولة منه لكسب الوقت حتى يتمكن من اعتلاء العرش دون حدوث أية مشاكل لا يتحملها الوضع الراهن وبخاصة إزاء ازدياد قوة المسلمين، إضافة إلى

---

(١) رنسمان: الحروب الصليبية، حـ٢، ص٤٧٩- ٤٨٠. انظر أيضاً:

King, *Hospitallers*, pp.85-86; Rohricht, R., "Amalrich I Koig von Jerusalem", in *Miabeilugem des Institus fur Osterreicbiscbe Gescbicisfasrschung*, XII, (1891), p.432.

وقد أعيد نشر هذا البحث في كتاب للمؤلف ذاته بعنوان:

Rohricht, R., *Geschichte de Koingreichs Jerusalem*, (Innsbruck, 1898).

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤ ، ص١٨.

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية، حـ٣، ص٩٥.

(4) King, *Hospitallers*, pp.85-86.

خشية عموري من ازدياد النفوذ البيزنطي في أنطاكية[1]، وعليه فإنه قرر تفويت الفرصة على البارونات ثم استصدر بعد قليل من تتويجه أول قوانينه التي أدت إلى تقوية علاقته بأتباع كبار المقطعين – أي بارونات المملكة الذين وقفوا ضده - وقد أتاح له هذا القانون توطيد علاقته بصغار المقطعين ومناوئة البارونات، ثم تقوية وضع الملك عموماً في المحكمة العليا طالما كان الملك ذاته قوياً[2]، وبذا استطاع عموري بشكل ما مضايقة البارونات داخل المحكمة موجهاً لهم الصفعة ذاتها، وقد تلا صدور هذا القانون قوانين أخرى لتنظيم علاقة الملك بأتباعه[3].

ولكن ما هو الأثر الذي أحدثته العوامل الداخلية في توجهات سياسة الملك عموري الخارجية؟ كان الاحتياج الشديد الذي تعانيه المملكة في مواردها الاقتصادية والبشرية كفيلاً بردع عموري عن القيام بحملات متكررة في الجنوب والشمال، بل إن جشع الملك ذاته داخل المملكة - بفرضه للضرائب الباهظة على الكنائس والفلاحين واغتصابه لأملاك رعاياه - إنما كان لخدمة سياسته الخارجية، وحاول عموري نفسه

([1]) Amaury I, Amalrici, Hierosolymorum Regis, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.36-37; Rohricht, *Regesta*, no. 396.

([2]) La Monte, *Feudal Monarchy*, pp.22-23,99,153.

وعن أهم إنجازات الملك عموري في المجال القانوني والتشريعي انظر:

Rohricht, *Amalrich I*, pp.309-310.

بينما يدعو الباحث روبرت باترسون إلى إعادة النظر في دور الملك عموري التشريعي في دراسته القصيرة والقيمة بعنوان:

Patterson, R.,"The early existence of the *Funda* and *Catena in* the twelfth century Latin Kingdom of Jerusalem", in *Speculum*, (1964), pp.474-477.

راجع أيضاً: رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٤٧٦- ٤٨٤.

وعن ملابسات تتويج ملوك بيت المقدس عموماً والملك عموري خصوصاً راجع الدراسة القيمة التي قام بها ماير عن هذا الموضوع. انظر:

Mayer,"Pontifikale von Tyrus und die Krönung der Lateinischen Könige von Jerusalem: Zugleich ein Beitrag zur Forschung über Herrsch aftszichend und Staatssymbolik", in *DOP*., XII., (1967), pp.97–232.

([3]) رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٥٨٧.

تبرير أساليبه في الحصول على المال بأنها ضرورة تقتضيها مصلحة المملكة والرعية معاً؛ لأن امتلاء خزائن المملكة يؤدي إلى الحفاظ على قوتها، وعلى النقيض يقود الافتقار إلى المال إلى إحباط السياسات الملكية ولم يكن لدى عموري نية المعاناة من ذلك[١].ولكن ألم يكن من المفترض أن تنفق هذه الحملات على نفسها بعدما فرض عموري المبالغ المالية الكثيرة على الدولة الفاطمية سنوياً ومن ثم يُصلح حال المملكة؟ من الواضح أن الحروب التي خاضها عموري كانت كثيرة، ولم يكن لديه موارد ثابتة للإنفاق عليها لدرجة أنه هاجم مصر في حملته الأولى بحجة الحصول على الإتاوة السنوية التي فرضها بلدوين الثالث على مصر ورفضت أدائها إلى عموري عقب اعتلائه العرش[٢].

ودعت هذه الأوضاع الأمير الأرمني توروس الثاني إلى الإشفاق على المملكة التي وجدها – خلال زيارته لها - خالية من وسائل الدفاع أو من الموارد المالية، ولما سأل توروس عموري عن مصادر تمويل حملاته وحروبه ودفاعه عن مملكته أجاب بأنه يقترضها، وعندها عرض عليه توروس إمداده بثلاثين ألف رجل لاستيطان فلسطين ويكونوا وقتها في عداد قوة المملكة، وكاد الملك يقبل هذا العرض حتى اعترض عليه رجال الدين اللاتين الذين أصروا على ضرورة حصولهم على ضريبة العشر من هؤلاء الأرمن، ففضل توروس سحب عرضه معلقاً بأنه لم يأت إلى المملكة حراً لينصرف عنها تابعاً لها[٣].

ولم يقف الأمر عند هذا وإنما تعدى إلى ازدياد نفوذ طوائف الفرسان الرهبان وتدخلهم في سياسة المملكة أو إفسادهم لسياسة الملك، وذلك بسبب اتساع ثرواتهم

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٩. وأيضاً:

Baldwin, *The Latin*, p.548; Rohricht, *Amalrich I*, pp.311-312.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٢٥.

(٣) اندهش الأمير توروس من حقيقة أن كل أراضي المملكة وقلاعها صارت في حوزة الجماعات المسلحة بحيث لم يبق في حوزة الملك عموري سوى ثلاث قلاع فقط، ولذا فقد غضب توروس من الوسائل غير الأكيدة في الدفاع عن المملكة.راجع في ذلك:

Ernoul, *Chronique*, pp.27-29.

واستقلال قضائهم الذي كان تحت سلطة البابا مباشرة، بمعنى أن جماعات الفرسان كانت مستقلة عملياً عن سياسات المملكة وقد عمّقَ هذا من مأزق قلة عدد الفرسان في الشرق، ويتضح ذلك من الرسائل التي بعث بها كل من عموري ومقدم الداوية في أنطاكية وإيمري بطريرك أنطاكية وبطريرك بيت المقدس إلى لويس السابع ملك فرنسا[١]، "فمملكة بيت المقدس تحتاج إلى إقرار المزيد من القوى والثبات....إن الضغط على المملكة الشرقية يتطلب تدخلكم[٢]"، وذلك في محاولة لاستدرار عطفه لإمداد المملكة والإمارات الصليبية بمساعدة عاجلة، ولم يكن الغرب الأوربي بعيداً عما يحدث في الشرق اللاتيني؛ إذ أقرّ البابا ألكسندر الثالث في إحدى منشوراته إلى المؤمنين في الغرب، الموقف الضعيف الذي تعانيه مملكة بيت المقدس في محاولة منه لحث قوى الغرب على التوجه نحو الشرق لمساعدة الصليبيين "ولكن في العصر الحالي نجد أن تعداد السكان أقل مما كان عليه، إذ أضعفت كثرة المحن والزيادة السكانية، إلى جانب إنهاك هذه الزيادة وإنقاصها بسبب الهزائم المتلاحقة في الحروب.... إنها تستلزم من جديد المساعدة التي اعتادت الحصول عليها من دول الغرب[٣]".

وفي الوقت الذي شهدت فيه المملكة عجز مواردها البشرية والاقتصادية كان المسلمون يتقدمون أكثر فأكثر، ولذا فقد كان دور الجماعات الدينية مهماً للغاية في تلك

([1]) Amaury I, Amalrici, Hierosolymorum Regis, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.36-37,39-40,57; Amalrici, Regis Hierusalem, ad Henricum, in RHGF, t. XVI, pp.187-188; Amalrici, patriachæ Hierosol, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.168; Bertrandi De Blankafort, magistri militiæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.38-39.

([2]) Bertrandi De Blankafort, magistri militiæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI pp.38-39.

([3]) Migne, *Cartulaire dans Patrologie Latine*, t.200, colls.599-600; Alexander III, in Richard, p71.

اللحظة مما يتضح من محاولة عموري حل مشكلة القوة الضاربة في المملكة باعتماده على جماعات الفرسان في حراسة القلاع المهمة ومرافقتهم له في حملاته، بيد أنهم كانوا يشاركونه لكونهم حلفاء متطوعين، ويلتزمون بأداء الخدمات التي يُقرّها الملك عليهم ولكن وهم يصرّون على استقلالهم شأن الأمراء الكبار، في عقد معاهداتهم وإعلان الحرب وإقرار السلم دون استشارة الملك أو النظر إلى سياسته، ثم كان الصراع بين الداوية والاسبتارية أحد الأوجه المظلمة التي أعاقت مساندتهم للمملكة، بدا ذلك جلياً في انقسام القيادة الذي حدث في حملة عموري على مصر عام ١١٦٨م/٥٦٤هـ حينما رفض الداوية المشاركة في الحملة، غيرة مما حصل عليه الاسبتارية من إقطاعات مبذولة مقدماً في مصر ولم يكن الملك قادراً على إجبارهم على المشاركة في حملته[١].

حقاً أبدى عموري جرأة في معاقبة أحد فرسان الداوية عام ١١٧٣م/٥٦٨هـ الذين كانوا سبباً في تقويض تحالفه مع الحشاشين بقتل أحد فرسان الداوية لرسول الحشاشين إلى الملك عموري، مخالفاً بذلك الوضع المميز لتلك الجماعة[٢]، لكن ذلك لم يكن ليُغّيرُ ما حدث في وقت اشتدت فيه حاجة المملكة إلى حلفاء من داخل الجبهة الإسلامية، ومن هنا فإنه بالقدر الذي أسهمت فيه الجماعات المسلحة في إمداد المملكة بما تحتاجه من الفرسان والدفاع عن الحصون ومحالفة الملك بالقدر الذي أدت سياسات تلك الجماعات المستقلة وخلافاتها الجانبية إلى عدم إفادة المملكة منها الإفادة التامة.

ومن ناحية أخرى كان الملك يمتلك القوة النظرية داخل المملكة على حد تعبير لامونت "بيد أنه كان دائماً معاقاً في ممارسته لها، بسبب البارونات الغيورين على حماية حقوقهم وامتيازاتهم ولأنه كان مُلزماً أيضاً باستشارتهم في كافة الأمور، وحينما يستطيع الملك فرض نفسه على البارونات فإنه كان مضغوطاً بالتدخل الخارجي

---

(١) انظر في ذلك:

La Monte, *Feudal Monarchy*, pp.163-165.

وانظر أيضاً: رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٦٠٨-٦٠٩.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٣٠-٣١.

وكانت مملكته سيئة الحظ غير المتحدة في أحسن الأحوال ممزقة بسبب الصراع بين هؤلاء وأولائكم[1]".

تلك هي الظروف الداخلية التي كان بإمكان عموري فهمها، ولكن ألم يكن متناقضاً أن يكون قارئاً للتاريخ ومتابعاً لمجريات أحداثه ليدرك أن حملاته على مصر جاءت في وقت تبدلت فيه الظروف المحيطة به كثيراً بحيث لا تكاد تسمح بقيامه بها؟ لقد اتحد المسلمون - وصاروا يسيطرون على بلاد الشام في جانبها الداخلي - تحت قيادة موحدة وأتباع مخلصين، بينما تبدل وضع الفرنجة الذين مالوا إلى الأخذ بأساليب الحياة الشرقية، علاوة على اختفاء روح الحماسة التي صحبت الجيل الأول للفرنجة في توسعاتهم على حساب جبهة إسلامية مفككة كلية، صار هؤلاء الآن يفضلون العيش في سلام "والحق أن الظروف قد تبدلت كل التبدل فقد كان العدو عند خروجهم في أول الأمر يخشاهم أشد الخشية وترتعد فرائصه منهم ويراهم تهديداً خطيراً له، أما الآن فقد أصبح هؤلاء العسكر ....في حال يرون النصر- كل النصر- أن يعودوا سالمين إلى أماكنهم، أما العدو فقد غدا آمن السرب ناعم البال مطمئناً إلى أن يده صارت الآن هي العليا[2]".

وباختصار كانت الظروف الداخلية الصعبة التي عانت منها المملكة هي ذاتها الدوافع السلبية التي حركت الملك للقيام بحملاته نحو الخارج، ولم يكن ذلك جنون عظمة أو مجرد رغبة استعمارية وإنما دواع فرضتها عليه الظروف المحيطة به في وقت عانت فيه مصر من أمراض قرن أو ما يزيد من الفساد والاضطراب، وسواء نجح الملك أم فشل في تلك السياسة فإنه لم يكن لديه خيار آخر، أما عدم تقديره لأعدائه وخصومه وقوته الذاتية وموارد مملكته فإنها من مسئوليته وسوف يتعرض لها الباحث في موضعها.

كانت أحوال مصر تتحول من سيء إلى أسوأ بسبب الصراع المألوف لرجال

([1]) La Monte, *Feudal Monarchy*, p.156.

([2]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٧٠-٧١. وأيضاً ص٣٢١-٣٢٢. وعن التحول الذي حدث في حياة الفرنج انظر: فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص٣١٦-٣١٧؛ جاك دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ص١٠٤-١٠٦؛ أسامة ابن منقذ: الاعتبار، ص١٣٢-١٣٤.

الدولة على منصب الوزارة وقدمت فرصة ذهبية للملك عموري وكذا نورالدين للعب دور مهم في أحداث مصر آنذاك ومن هنا بدأت أولى حملات الملك عموري على مصر بعد قليل من اعتلائه العرش في سبتمبر١١٦٣م/شوال٥٥٨هـ.. ولم يكن خروج ضرغام على الوزير شاور سوى دين لم يُوفّه الأخير إلى بني رزيك[١]، وفي الوقت ذاته لم تكن الحادثة الفريدة التي حدثت في تلك الفترة، لأن بني رزيك أنفسهم اعتلوا الوزارة على حساب عباس وابنه نصر، وهذا أخذها على حساب ابن السلار وهكذا..[٢]، بيد أن شاور كان يختلف عمن سبقه من وزراء مصر الذين طردوا من الوزارة في كونه الوحيد الذي خرج من الوزارة ثم عاد إليها، وكانت له سابقة استند إليها في عودته إليها؛ لأنه كان أحد رجال رضوان بن الولخشي، الوزير الفاطمي الأسبق للخليفة الحافظ الذي طُرد من الوزارة، فذهب إلى بلاد الشام للحصول على مساعدة عماد الدين زنكي في حلب للعودة إلى منصبه، وكان شاور مرافقاً له في تلك الرحلة، بيد أنه لم ينجح بسبب طغتكين حاكم دمشق الذي أفسد له مخططاته بمساعدة أسامة بن منقذ تخوفاً من حدوث أي تحالف بين حلب ومصر، ربما أرّق مضجع طغتكين في دمشق، ومن ناحية أخرى سعى الوزير ابن السلار بعد قليل إلى الاستعانة بدمشق للعودة إلى وزارته أيضاً ولكنه فشل في ذلك[٣].

بيد أن وضع دمشق الآن تبدل عن المرة الأولى التي ذهب فيها شاور مع

---

(١) راجع ملامح صراع الوزراء على الوزارة لدى: عمارة اليمني: النكت العصرية، ص٦٦، ١١٠؛ ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٨١؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٣٥٦-٣٥٨.

(٢) عن هذه الأحداث انظر: أسامه بن منقذ: الاعتبار، ص٣٨-٣٣؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٦٠-٢٦١؛ ابن الوردي: تاريخه، جـ٢، ص١٠٣-١٠٤؛ ابن ظافر: أخبار الدول، ١١٣-١١٤.

(٣) أسامه بن منقذ، الاعتبار، ص٣٨-٣٣؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٦٠-٢٦١. وعن صراع شاور وضرغام المشهور على الوزارة انظر:
ابن شداد: النوادر، ص٢٣؛ المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٤٧؛ القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المطبعة الأميرية، القاهرة ، ١٩١٨م، جـ١٣، ص٨٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٣٣٨-٣٤٦؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٢، ص٤٤٢-٤٤٤؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، جـ٧، ص١٨-١٩، ٢٥-٢٦؛ ابن الوردي: تاريخه، جـ٢، ص١٠٣-١٠٤؛ ابن ظافر: أخبار الدول، ١١٣-١١٤.

رضوان ابن الولخشي؛ إذ كانت فيما سبق بؤرة لحكومة مستقلة وترى المصلحة في معاهدة الصليبيين في المملكة ومهادنتهم، مخافة امتداد نفوذ أمراء حلب والموصل إليها، ولذا فإنها لم تكن تملك قراراً خطيراً كهذا لأنه يعني أن تُوضع بين شقي الرحا إذا ما تغيبت قوتها الأساسية في جبهة بعيدة مثل مصر، علاوة على أن مواردها البشرية والاقتصادية لم تكن تسمح بتقديم مثل تلك المساعدة، أما الآن فإنها أصبحت جزء من تحالف كبير صار يجمع كل بلاد الشام لأول مرة منذ الغزو الصليبي، ولم يكن همّ نورالدين - قائد هذا التحالف - سوى تقويض الكيانات الصليبية، وكانت وسيلته في تحقيق هذا الحلم توحيد المسلمين تحت قيادته، ولم تكن مصر بمنأى عن هذا المشروع الكبير أو على الأقل لم تكن برغم ما تعانيه من ظروف بعيدة عن ذهن نورالدين، ولهذا بعض الدلائل منها الرواية التي أوردها المقريزي عن كتابة الخليفة العباسي المقتفي لأمرالله عام ١١٥٤م/٥٤٩هـ "عهداً لنورالدين محمود بن زنكي صاحب دمشق بولاية مصر والساحل، وبعث إليه بمراكب زحف وأمره بالمسير إليها، لما بلغه قتل الظافر وإقامة الفائز من بعده وهو صغير وقيل له قد اختلت أحوال الدولة بمصر[1]".

وبالرغم من عدم وقوف الباحث في المصادر التي أرخت لعصر نورالدين على ما يؤكد هذه الرواية وعدم اتخاذ الأخير أية إجراءات تالية لأمر الخليفة فإنها إشارة ضمنية على وجود ما يربط بين مصر ودمشق في تلك الفترة[2]، ومن ناحية أخرى لم يكن هذا الأمر الوحيد الذي أبدى به نورالدين اهتمامه بمصر، ففي تفسير منطقي لمصطفى الحياري عن هذه النقطة أقر أن نورالدين كانت له عيونه في مصر التي كانت تبعث إليه بأخبارها أولاً فأول، وأن من هؤلاء زين الدين ابن نجا الواعظ الذي نقل إلى نورالدين - عن شيخ مصري مُسنّ - أنه سوف يأتي إلى مصر ويستولى عليها، واتخذ الحياري من المراسلات الدبلوماسية المتبادلة بين نورالدين وطلائع بن

---

(1) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٢٣.

(2) Yaacov Lev, *Saladin in Egypt*, (Leiden, Boston, Köln, 1999), pp.55-56.

رزيك تمهيداً لغرض الخليفة المقتفى وبداية لتنفيذ الأمر على ضوء القدرات الواقعية[1]، وذلك ما يدعّم أن مصر لم تكن بعيدة عن نورالدين، على الأقل من الناحية النظرية، وإذا اتُخذت إشارة المقريزي بشأن رسالة الخليفة على أنها قرار عاطفي تبع ضم نورالدين لدمشق وللوضع السياسي المزري الذي تعانيه مصر، بحيث لم يكن ليُنفذّ أمر الخليفة في ذلك الوقت، فإنها في الوقت نفسه تشير إلى وجود الفكرة ذاتها سواء لدى الخليفة أم لدى نورالدين[2].

أما الأمر الذي يستدعى الاستفسار فهو سبب اتجاه شاور الرجل الفطن اللبيب الذي تلاعب بعدئذ بأكبر قوتين في بلاد الشام - وهما عموري ونورالدين - إلى نورالدين وهو على علم بما قد يترتب على ذلك من أحداث قد لا تعيده إلى مصر وربما تفقده حياته، علاوة على عدم محاولته الاستفادة من معسكر محايد مثل معسكر الملك عموري مثلما فعل فيما بعد؛ إذ كان عموري مناسباً لأغراض شاور لأكثر من وجه فهو أقل قوة من نورالدين بحيث يستطيع التخلص منه إذا ما أعاده إلى الوزارة بعكس حال نورالدين، والوجه الآخر أن عموري كان قد وصل إلى مصر بالفعل في حملته الأولى عليها في سبتمبر١١٦٣م/شوال ٥٥٨هـ عقب توليه العرش بستة أشهر تقريباً، وفي الوقت الذي وقعت فيه أحداث طرد شاور من الوزارة على يد ضرغام، وكان شاور في موضع ما بمصر حينما هاجم عموري مصر، بين عشيرته من العرب "اختبأ هناك بين خاصته في انتظار ما ينجلي عنه الموقف وتتمخض عنه الحرب، وكان يطمع أن تسعفه قريباً الفرصة الطيبة ليقلب فيها المائدة على منافسه[3]"، وتشير هذه الرواية التي تنم عن تفهم وليم الصوري الجيد لنيات شاور إلى استعداد شاور لاستغلال أية فرصة كي يعود إلى الوزارة.

ولكن قبل أن يمضي الباحث في هذا فإنه يوجد سؤال آخر يفرض نفسه على

---

(1) مصطفى الحياري: صلاح الدين القائد وعصره، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤م، ص٥٧-٥٩.

(2) انظر في ذلك: المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٤٥.

(3) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٢٦.

الدراسة وله صلة بالإجابة على التساؤل الأول وهو لماذا هاجم عموري مصر في تلك الفترة (سبتمبر١١٦٣م/شوال٥٥٨هـ)؟ هل كان على علم بالوضع الذي تمر به مصر من صراع بلغ ذروته بطرد شاور من الوزارة؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم ينسق جهوده مع شاور على افتراض أنه في حاجة إلى المساعدة طالما ينوي العودة إلى الوزارة بقوة خارجية؟ تشير المصادر - للوهلة الأولى - إلى أن عموري قدم بتلك الحملة إلى مصر للمطالبة بالأموال المقررة للمملكة على مصر سنوياً التي رفض المصريون دفعها لرسل عموري، وهو المال الذي سبق وتعهد طلائع بن رزيك بدفعه للملك الراحل بلدوين الثالث، بيد أنها حجة ظاهرية وتنطوي على عدم معرفة بما حدث في مصر بالفعل، ومن ناحية أخرى تأتي معظم الروايات التي عالجت خبر هذه الحملة في صورة مقتضبة لا تقارن بما ذُكر عن حملات عموري الأخرى وذلك ما يصعّبّ من معرفة الحقيقة.

إذ لاريب أن المصادر الغربية والشرقية قد اتفقتا على موضوع المال المقرر الذي جاء نتيجة لتهديد بلدوين الثالث بغزو مصر عام ١١٦٠م/٥٥٥هـ[١]، ولكن في الوقت الذي قدّر فيه المقريزي ذلك المبلغ بثلاثة وثلاثين ألف دينار[٢]، قدره ميخائيل السرياني بمائة وستين ألف دينار[٣]، وهو مبلغ كبير يصعب أن تتعهد به خزانة خاوية كخزانة الدولة الفاطمية، وأياً ما كان المبلغ فإنه لا يُعقل أن يقود الملك عموري جيوش مملكته لمهاجمة بلدة بعيدة ربما تعرضت فيها مسيرة جيشه وخطوط إمداداته إلى اعتداءات المسلمين في بلاد الشام، علاوة على ما يمكن أن تتعرض له المملكة ذاتها

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٥٩؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية،جـ٤، ص٢٥-٢٦. انظر أيضاً:

Rohricht, *Amalrich I*, pp.436-437; Richard, *Le Royaume Latin de Jérusalem*, (Paris, 1953), p.52; Schlumberger, *Campagnes du Roi Amaury I de Jérusalem en Egypte*, (Paris, 1906), pp.41-42.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٥٩، ٢٦٢، ٢٦٤.

(3) Michel Le Syrien, *Chronque*, III, p.358.

من مشاكل خارجية من قِبل نورالدين[1]، ومغامرة مجهولة في بلد كبير مثل مصر كل ذلك للحصول على الإتاوة، ومن ناحية أخرى يصعب تفهم قيام عموري بحملته عقب تتويجه مباشرة[2].

إن هذه المداخلات تستدعي توسيع دائرة النقاش، إذ ارتبطت هذه الحملة في بعض جوانبها بالسياسة التي طالما سعى ملوك بيت المقدس إلى تحقيقها منذ جودفري وبلدوين الأول، وهي استكمالاً للخطوة التي اتخذها بلدوين الثالث باستيلائه على عسقلان عام ١١٥٣م/٥٤٨هـ التي كانت في اعتقاد الفرنج مفتاح الديار المصرية، وأنها ستُغيّر المجرى العام للأحداث التي كانت تتجه دائماً صوب الشمال لتسير اليوم وفيما بعد نحو الجنوب، ولم يكن ذلك سوى الحل الذي قد يؤدي إلى اتزان وضع الصليبيين، وإضافة إلى ذلك ارتبطت تلك الحملة من جانب آخر بالخبرة التي اكتسبها الكونت عموري من خلال حكمه في يافا وعسقلان وهما أقرب ما تكونا من مصر، وأشير إليه عرضاً في التصدى للهجمات التي وجهتها الحكومة المصرية إليه وتبادل وإياها النصر والهزيمة، ومن ثم كان الملك عموري مميزاً لحقيقة ما يجري في مصر ومدركاً لكمّ الاستفادة التي تنجم عن ضمها إليه بعيداً عن شمال بلاد الشام الذي لم يعد فيه منفذاً للتحرك، بسبب كل من نورالدين ومانويل اللذين فرضا سيادتهما هناك.

وكانت مصر ملتزمة بالفعل للصليبيين بمبلغ سنوي ولكن لم يسبق لها أن دفعته، إذ تؤكد المصادر ما ذكره رنسمان عن عدم دفع مصر للمملكة أية مبالغ في تلك الفترة[3]، وبالرغم من ذلك فقد بعث عموري رسله للمطالبة بذلك المال، فوصلوا مصر في الوقت الذي انفجر فيه الصراع الأخير للوزراء على من يلي الوزارة، ولم يكن عموري آسفاً على عودة رسله بدونها قدر فرحته بالأخبار التي عادوا يبشرونه بها عن طرد ضرغام لشاور[4]، فلم يُضيّع وقتاً؛ إذ أمر بحشد كافة قوى المملكة تاركاً

([1]) Amalrici, Regis Hierusalem, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.59-60; Rohricht, *Regesta*, no.382.

([2]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٢٥.

([3]) رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٥٩٢.

([4]) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٥٩.

إياها عُرضةً لهجمات نورالدين الذي كان يخطط لمهاجمة حارم[1].

ويبدو أن عموري واجه صعوبة في تموّيل هذه الحملة؛ إذ يتضح من الخطابات التي بعث بها عموري ومقدم الداوية وبطريرك أنطاكية إلى الملك لويس السابع أن المملكة كانت تعاني من شظف العيش وأنها في حاجة إلى دعم عاجل مثلما كانت تحصل عليه أيام بلدوين الثالث، ومن ناحية أخرى لم يخبر عموري الملك لويس في أولى رسائله إليه أنه ينوي غزو مصر، ولم يفعل ذلك إلا في خطاب آخر في أثناء وجوده في مصر بالفعل بعدما أيقن كمّ الصعوبات التي يواجهها[2].

وفي تقدير الباحث أن الملك عموري كان يأمل في هذا الوقت المبكر من حكمه في حملة صليبية كبيرة مثل الحملة الثانية التي جاءت في عصر أخيه الملك بلدوين الثالث، وكان يطمع من ورائها في غنيمة أكبر من دمشق وهي مصر، بيد أنه فشل في مسعاه، ومن جهة أخرى فإن الظروف الداخلية والخارجية التي واجهتها المملكة في بداية عصر عموري كانت ميراثه عن أخيه، ولم يطرأ عليها أي تغيير إلا بعد موقعة حارم ولم ينتج ذلك إلا عن تحرك عموري نحو مصر في حملته الثانية عليها، وبمعنى آخر كانت رسائل الاستغاثة التي بعث بها عموري في هذه المرحلة نوعاً من الدعايات التي رغب بها الحصول على جيش كبير من الغرب، ولما لم يكن في المملكة ما يدعو إلى هذا الاستدعاء فالراجح أن عموري كان ينوي التوجه بهذه الحملة إلى مصر، أما عدم إفصاحه عن هذا الهدف في خطابه الأول إلى لويس السابع فلأنه لم يكن قد قرر

---

(1) ابن الأثير: الباهر، ص١٠٩، ١١٦.

(2) عن المشاكل التي واجهها الملك عموري في حملته الأولى على مصر وموافقة الخطابات الأخرى لما ورد في خطاباته هو انظر:

Amalrici, Hierosolymorum Regis, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.36-37; Amalrici, Regis Hierosolymorum, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.37-38; Amalrici, Regis Hierusalem, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.59-60; Aymerici, patriarchæ Antiocheni, ad Ludovicum, in =RHGF, t.XVI, pp.61-62; Gaufredi Fulcherii, procuratoris militæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.60-61; Bertrandi De Blankafort, magistri militiæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp. 80-81.

بعد التوجه إلى مصر، ومن ناحية أخرى لم يكن في حسبانه أنه سيلقى فيها المقاومة التي تصدى له بها ضرغام، ربما لأن فكرته عنها لم تكن عن تقدير واقعي لقوتها الحقيقية، وعليه فقد قرر في أثناء المغامرة أن يستغيث بمساعدة الملك لويس السابع.

أما مسألة تمويل الحملة التي تحرك بها صوب مصر فإنها دليل على أن المملكة لم تكن بهذا الضعف الذي صَوّره خطاب الملك، بل كان الغرب يبعث إلى المملكة بالمساعدات التي وإن كانت قليلة فإنها ثابتة، وقد وصلت بعض هذه المساعدات عقب رحيل عموري إلى مصر وبعد عودته عنها[١]، ومن ناحية أخرى يرجح استفادة عموري من جماعتي الداوية والاسبتارية؛ إذ كان مقدم الداوية في أنطاكية أحد الذين يساندون الملك عموري بالكتابة إلى لويس السابع لإرسال المساعدة، ولم تكن جماعة الإسبتارية معارضة لأي من سياسة الملك عموري حتى وفاته[٢]، كما يُرجّح استفادة عموري من القانون الذي سنّهُ لصالح الأتباع الصغار في بداية حكمه بدعمهم له.

أياً ما كان الأمر فقد كان من حظ عموري أن يدخل مصر وقد أبعد ضرغام شاور عنها[٣]، وحدثت عدة اشتباكات بين عموري وضرغام قرر عموري على إثرها كثرة أعداد عدوه ولكنه تغلب على ضرغام في النهاية، وكان لديه الوقت الكافي للتفكير ملياً في مصير مصر مما يتضح من رسالته إلى لويس السابع، والرسالة في حد ذاتها تعبير عن المأزق الذي وضع عموري نفسه فيه؛ لأنه كان يطلب من لويس سرعة إنجاده لإتمام غزو هذه البلاد[٤]، وحينما عجزت وسائل ضرغام عن التصدي للملك عموري فإنه استغل جهل الصليبيين بالظروف الجغرافية والطبيعية لمصر وفجّر الجسور التي تحجز مياه الفيضان خلفها فأغرقت الأراضي وتسببت في تراجع

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٣٠-٣٣. انظر أيضاً:

Ernoul, *Chronique*, pp. 21-22.

(2) King, *Hospitallers*, p. 87.

(٣) عمارة اليمني: النكت العصرية، ص٧٥؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٦٢.

(4) Amalrici, Regis Hierusalem, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.59-60; Rohricht, *Regesta*, no 382; Michel Le Syrien, *Chronique*, t. III, p.317.

الملك[1]، وكأن ضرغام يُشرّع لشاور فيما بعد سُنّةَ الإفادة من الظروف الطبيعية لهذا البلد، ولم يكن أمام الملك سوى العودة إلى المملكة[2]. ويُوحي أحد خطابات عموري بأنه انسحب من مصر بعد هزيمته لضرغام واضطرار الأخير إلى قبول الهدنة وإقراره بدفع مبلغ سنوي للمملكة مما جعل عموري ينسحب من مصر[3].

ولعل عموري كان يجد عزاءً في فشل حملته بأن يصل إلى اتفاق مع ضرغام في مصر بالحصول على المال المقرر سلفاً، وأنه سيكون بإمكانه الوصول إلى اتفاق أكبر، وقد أقر المقريزي أن رسل عموري جاءوا في مستهل السنة التالية من حملته - أي عام ١١٦٤م/٥٥٩هـ - لمطالبة ضرغام بمال الهدنة التي تقررت بينه وبين الملك، مما يعني وجود اتفاق نجم عن حملة عام ١١٦٣م/٥٥٨هـ، بيد أن ضرغام انشغل عن رسل عموري بمحاربة شاور وشيركوه[4].

ولكن لم يُشر وليم الصوري إلى حدوث اتفاق بين الملك وضرغام ولكنه أشار

---

(1) عن ما يحدثه الفيضان في مصر في ذلك الوقت يقول ياقوت الحموي"*فإذا استوى الماء كما نكرناه في المقياس من هذا الكتاب أطلق حتى يملأ أرض مصر فتبقى تلك الأراضي كالبحر الذي لم يفارقه الماء قط والقرى بينه يمشي إليها على سكور مهيأة والسفن تخترق ذلك فإذا استوفت المياه ورويت الأرضون أخذ ينقص في أول الخريف وقد دبر الهواء وانكسر الحر*" وهذا يعني أنه كان من الصعب على عموري في ظل جهله بتلك =الظروف وجهله بجغرافية مصر أن يستمر في حملته. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٥، ص٣٣٥.

(2) انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٢٥-٢٦؛ جاك دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ص١٤٦؛ المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٤٧؛ اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٦٢-٢٦٤؛ عمارة اليمني: النكت العصرية، ص٧٥. وأيضاً: ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٧٤؛ ابن ظافر: أخبار الدول، ص١٤. انظر أيضاً:

Amalrici, Regis Hierusalem, ad Henricum, in RHGF, t. XVI, pp.187-188; Grégoir Le Prêtre, Chronique, p.198; Fabri, *The book of Wandering*, p.328. See also: Rohricht, *Amalrich I*, pp.436-437; Schlumberger, *Campagnes*, pp.41-42.

(3) Amalrici, Regis Hierusalem, ad Henricum, in RHGF, t. XVI, pp.187-188.

(4) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٦٢، ٢٦٤.

إلى الانتصار الرائع الذي حققه عموري[1]، وهذا ما يدعو إلى تأويل الأمر على محمل فرض الملك على ضرغام مبلغ مالي جديد أو الاقتصار على دفع ضرغام للمبلغ القديم مقابل حصوله على الهدنة، أما الدليل على ترجيح عقد الهدنة فإشارة وليم الصوري عن قبول ضرغام زيادة المبالغ المالية التي اتفق عليها مع الملك في مقابل الهدنة، ثم وصول رُسُل الملك عموري في بداية العام التالي(١١٦٤م/٥٥٩هـ) "في طلب مال الهدنة فماطلهم ضرغام ودافعهم[2]" وهذا يقتضي ضمناً حدوث نوع من التفاهم الذي رحل عموري على أساسه من مصر.

ولكن أين كان شاور من تلك الأحداث؟ لم يكن بعيداً عن أرض المعركة التي دارت بين عموري وضرغام، وإن لم يشارك فيها ولعله انتظر حدوث مفاجأة ربما أعادته إلى وزارته كقتل ضرغام أو ما شابه[3]، أما ما يستدعي الفضول فإنما أسباب اتجاه شاور إلى نورالدين وهذا يجر الباحث إلى التساؤل الأول وهو الأمر ذاته الذي يدعو إلى تأكيد فرضية رحيل عموري عن مصر على أساس اتفاق ما مع ضرغام مما منع شاور من الاتصال بالملك عموري، وبخاصة في هذه الفترة التي لم يقرر فيها بعد مسألة الاستعانة بقوى أخرى لإعادته إلى الوزارة بدليل بقائه في مصر، ولذا فإنه كان في عوز إلى الاحتفاظ بأحد الأوراق الرابحة في يديه، وقد أمده ضرغام بأسلوب عملي عن كيفية خوض التجربة. فمن المرجح أن شاور كان يُدرك إلى حد ما الوضع الذي تعاني منه المملكة في صراعها مع نورالدين وأن مصر ستكون عما قريب ميداناً لحسم القضية، وسواء صح ذلك أم لا فإنه حدث بالفعل، ولكن ما الذي سيستفيده شاور من الاستعانة بعموري وقد سبق وفشل الأخير في القضاء على ضرغام وانتزاع مصر من يديه؟

لقد فكر شاور في الاستعانة بنورالدين لكونه أقوى من عموري، ومن ناحية أخرى كانت علاقة شاور بنورالدين طيبة، إذ سبق وأرسل شاور إلى نورالدين الخلع

---

(1) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٢٧.

(2) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٦٤.

(3) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٢٦؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٦٢.

والأموال عقب توليته الوزارة في ١٣من أغسطس١١٦٣م/١٢من رمضان ٥٥٨هـ[١]، ومن جهة أخرى يَفْضْل نورالدين عن عموري بأن نورالدين مسلم بحيث لن يعترض المصريون على قدوم قواته إلى مصر لطرد ضرغام، فإذا ما تحقق ذلك وعاد شاور إلى الوزارة صار بإمكانه التلاعب بنورالدين مهدداً باستدعاء عموري كورقة أخيرة...ولكن ألم يخش شاور إذا ما توجه إلى نورالدين أن يستعين ضرغام بعموري لرد نورالدين؟

تبدو الإجابة بالإيجاب؛ لأنها الطريقة الوحيدة الباقية أمام ضرغام للاحتفاظ بمنصبه ولكن ذلك يُفقده مساندة المصريين إذا ما استعدى عموري على المسلمين، بل إن وضع ضرغام نفسه كان قلقاً بسبب قتله لأمراء الدولة شكاً منه فيهم بأنهم يراسلون شاور لمساندته عند عودته[٢]، وهذا يوضح ضعف موقف ضرغام وهو في سُدّة الحكم، أما الوجه الأكثر إشراقاً فتأكد شاور من أن قوة نورالدين إضافة إلى مساندة عشيرته وبعض المصريين له - ليس حباً فيه وإنما رغبة في التخلص من ضرغام - قد يؤدي إلى مساعدتهم له بما يرجح كفته على ضرغام، ربما قبل أن تصله مساعدة عموري إذا ما توخى عامل السرعة، ولكنه سوف يضع نفسه وقتذاك في موقف حرج حينما تخلو الساحة أمام نورالدين.

وتوحي الخطابات التي أرسلها عموري وإيمري بطريرك أنطاكية إلى الملك لويس السابع بحدوث حالة كبيرة من القلق التي انتابت بلاط بيت المقدس حول ما يدور في دمشق من ترجيح قيام نورالدين بحملة على مصر[٣]، والواقع أن الملك عموري

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٦.

(٢) أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق١، ص٤١٧؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٦٣-٢٦٤؛ عمارة اليمني: النكت العصرية، ص٧٤- ٧٧؛ ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٨١.

(3) Bertrandi De Blankafort, magistri militiæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.79-80,80-81; Gaufredi Fulcherii, procuratoris militæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.60-61; Gaufredi Fulcherii, procuratoris militiæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.62-63; Rohricht, *Regesta*, no. 403, 404, 406, 407.

هو الذي تسبب في هذه المشكلة، ذلك أنه هو الذي أوحى بحدوثها، بل وربما كانت حملته السابقة على مصر أكبر مشجع لنورالدين على التحرك نحو مصر في ذلك الوقت، ولإيضاح ذلك فإنه ينبغي توسيع النقاش بالاقتراب من قلب الأحداث الدائرة في بيت المقدس ودمشق.

فكما رجح الباحث من قبل توجه شاور إلى نورالدين بسب إدراكه أن نورالدين أقوى من عموري، ومن جهة أخرى لم يستعن شاور بالملك عموري لشكه في احتمال وقوع اتفاق ما بين عموري وضرغام، ولذا فقد توجه شاور إلى نورالدين. ولم يكن نورالدين منصرفاً كلية عن متابعة أحوال مصر وإنما كانت - دائماً - في مخيلته، وبخاصة في هذه الفترة بما يتضح من خلال بعض الشواهد التي تشير ضمناً إلى ذلك، منها تمسك نورالدين بأسامة بن منقذ الذي كان منذ وقت قريب أحد رجال الدولة الفاطمية، وواحداً ممن وجهوا سياستها فترة ما، علاوة على بقاء اتصالات أسامة بن منقذ مع طلائع بن رزيك الوزير الفاطمي[1]، ومن ناحية أخرى تزامن وصول شاور إلى بلاط نورالدين مع حثّ بعضهم له على غزو مصر وفتحها تفاؤلاً لرؤيا توحي بشيء كهذا، فتلاقى ما كان يضمره نورالدين مع طلب شاور مساعدته[2].

بيد أن ذلك لم يكن كافياً لاندفاع نورالدين مع شاور في مغامرة خطيرة مثل تلك، وقد قررت معظم المصادر الإسلامية أن نورالدين كان متردداً، يقدم رجلاً ويؤخر أخرى في هذا الأمر، وأنه لم يصل إلى قرار حتى استخار الله في هذه المسألة[3]. وكان لقلق - لا تردد - نورالدين العديد من الأسباب الوجيهة من وجهة نظر

([1]) أسامة بن منقذ: الاعتبار، ص٦- ٣٣.

([2]) من الأمور الأخرى التي شجعت نورالدين على اتخاذ قرار إيجابي بشأن التدخل في مصر وصول رؤية الشيخ المصري التي تتحدث عن استيلاء شيركوه على مصر لصالح نورالدين، وإيمان نورالدين بها حينما قرر الموافقة على التدخل ثم أرسل شيركوه على رأس هذه الحملة، بالرغم من أن نورالدين لم يكن لديه رجال كثيرون في كفاءة شيركوه، ممن يحظون بالثقة التي يحظاها لدى نورالدين. راجع: أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٥٠١؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٦٤-٢٦٦؛ ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٨٤، الباهر، ص١٢٠-١٢١.

([3]) ابن شداد: النوادر، ص٢٣؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق١، ص٣٢٩-٣٣٦،٣٣٢-٣٣٧؛ ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٣١٥-٣١٦؛ عمارة اليمني: النكت العصرية، ص٧٨-٧٩؛ ابن الأثير:

الباحث؛ إذ يبدو أن نورالدين كان يرى بلاد الشام بؤرة لصراعه مع المملكة الصليبية، ولم يكن في علمه كيف يخطط لسياسته المستقبلية في ظل تتويج ملك جديد للمملكة وهو الملك عموري، وحقا كان الأخير كونتاً ليافا وعسقلان وصد الكثير من الهجمات المصرية، بيد أن أسلوب سياسته لم يكن قد اتضح حتى قيامه بحملته الأولى على مصر، وهي أهم ما قام به الملك عموري عقب تتويجه على المستوى الخارجي، ولم يكن في ذهن نورالدين أن تكون مصر هي الوجهة الوحيدة للملك الجديد، وبخاصة أن نورالدين كان يُفضّل استيعاب فتوحاته في بلاد الشام أولاً، ويؤيد ذلك أن نورالدين لم يُحدّث شيركوه في التوجه إلى مصر إلا بعد حله لمشكلة القوى التي سوف يرسلها معه إلى مصر، بمعنى أن نورالدين لم يكن يسعى إلى التورط في مصر قبل أن يوفر لذلك جنوداً يزيدون عن احتياجه في بلاد الشام[1]، ولما كانت حملة عموري الأولى على مصر استهلالاً مبكراً على اتجاه سياسته فإن نورالدين كان مستعداً مبدئياً لمواجهة تلك السياسة.

ولم يكن نورالدين يحفل بأمر شاور كثيراً، وربما لم يكن يثق به، ولذا فقد أودع قيادة الجيش إلى رجاله وعلى رأسهم شيركوه، على الرغم من كره شاور لذلك[2]، وكان لدى نورالدين دواع كثيرة للشك في نية شاور؛ لأنه لم يتقرب إليه إلا بذمه للفاطميين ولعنه لمذهبهم وهو إيحاء مشاكس لا يغيب عن عقلية فطنة مثل عقلية نورالدين[3]، ومن ناحية أخرى يُوحي ماضي شاور السياسي بالقلق؛ لأنه يشمل مؤامرات وانقلابات للوصول للوزارة، وربما لم يبدأ نورالدين في تقرير مساعدته إلا حينما جاءته سفارة علم الملك بن النحاس[4] من قبل ضرغام، الذي بعث به إلى

الكامل، جـ٩، ص٨٥، الباهر، ص١٢١؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٦٤-٢٦٦.

(1) أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤١٨-٤١٩؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٦٥-٢٦٧.

(2) ابن شداد: النوادر، ص٢٣؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤١٨-٤١٩.

(3) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٨٠.

(4) لم يهتد الباحث إلى مظان ترجمة علم الملك ابن النحاس هو وابن قرجلة وابن الخياط وهم من الشخصيات التي تردد اسمها فيما بعد خلال أحداث تدخل عموري في مصر، إذ كان علم الملك

نورالدين يطلب منه القبض على شاور وألا يلتفت إلى مساعدته، عندها - ربما - اتخذ نورالدين قراره خوفاً من اتجاه ضرغام إلى عموري، ولذا فإنه أظهر لرسول ضرغام في الظاهر أنه يوافقه في الوقت الذي كان يشايع فيه شاور في الباطن وكان ذلك كسباً للوقت[1].

كما فكر نورالدين أيضاً في خطورة الطريق إلى مصر عبر جنوب الشام، وذلك لأنه يمر بمناطق يسودها النفوذ الصليبي من ناحية وبخاصة حصنا الكرك والشوبك وما مثلاه من خطورة على المتجه من بلاد الشام إلى مصر والحجاز والعكس ، هذا إلى جانب خطورة الطريق ذاته؛ إذ ينقصه الماء وطول خط الإمدادات، علاوة على وعورته التضاريسية وبخاصة في المنطقة من أيلة على خليج العقبة إلى السويس[2] على خليج السويس، وهي منطقة نائية وسط سيناء، وتستغرق – بمفهوم ذلك العصر - ثلاثة أيام لمرور أي قوة بها وسيضطر معها شيركوه إلى حمل الماء مسبقاً من أيلة التي يسيطر عليها الفرنج، ناهيك عن تخوفه من التجربة ذاتها في مصر وخطورتها؛ لأنه لم يكن يثق في أية مساعدة من داخل مصر - مثلما أوضح شاور له - وعند تلك النقطة ستكون مهمة الجيش صعبة[3].

ومن ناحية ثالثة كان توجه نورالدين إلى مصر يعني أن يُفسح لنفسه مجالاً أرحب للتوسع، بعيداً عن مزاحمة بيزنطة ومنافستها في شمال بلاد الشام، وكان

رسول ضرغام إلى نورالدين عام ١١٦٣م/٥٥٨هـ ليقنع نورالدين بعدم مساعدة شاور والقبض عليه، ثم اشترك الثلاثة فيما بعد في القيام بتمرد ضد شاور ولكنه تمكن من قمعه ففروا إلى الملك عموري وكانوا من الذين شجعوه على =غزو مصر عام ١١٦٨م/٥٦٤هـ، وكان آخر ما سمع عنهم محاولة ابن قرجلة الاتصال بالحشاشين ثم بالملك عموري لحساب عمارة اليمني في مؤامرته ضد صلاح الدين على ما سيشير الباحث في الفصل الرابع، ص٢٠٨-٢١٤.راجع أيضاً: المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٦٢-٢٦٣؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٨١، ٥٦٢.

(1) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٦٢-٢٦٣؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤١٨.

(2) السويس بلدة صغيرة على ساحل البحر الأحمر من نواحي مصر وهي ميناء مصر إلى مكة والمدينة، بينه وبين الفسطاط سبعة أيام *"في برية معطشة يحمل إليه الميرة من مصر على الظهر ثم تطرح في المراكب ويتوجه بها إلى الحرمين"* .انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان ،جـ٣، ص٢٨٦.

(3) أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤١٩؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٦٦.

نورالدين يخشى وصولها في أي لحظة مفضلاً عليها الأمراء الضعفاء[1]، كما كان نورالدين مهتماً بألا تؤثر هذه الحملة على الموقف السياسي في بلاد الشام، بحيث يستطيع التدخل في مصر دون أن يؤثر ذلك على وضعه في بلاد الشام، هذا في الوقت الذي يتمكن فيه من تقديم الدعم السياسي والعسكري إلى قائده شيركوه في مصر، وأن يظل خط الاتصال بينهما مفتوحاً، ويبدو أن نورالدين فكر ملياً في مساعدة شاور بما يتضح من معرفة أن شاور توجه إلى دمشق في١٣من أكتوبر١١٦٣م/١٣من ذي القعدة ٥٥٨هـ[2]، وهذا يقتضي ضمناً أن نورالدين أخذ وقته في التفكير في كافة نواحي الحملة، وريثما يتم استعداداته لها بتدبيره أمر العسكر، ولكن ما يمكن قوله إن الأثر الذي تركته حملة عموري الأولى على مصر فاق أي أثر آخر في تقرير نورالدين مساعدة شاور وإعادته إلى السلطة؛ لتحييد مصر على الأقل بعدم وقوعها تحت سلطة قوى أخرى.

وعندما وافق نورالدين نهائياً على مساعدة شاور تحركت قواته وعلى رأسها شيركوه من دمشق في ٩من أبريل١١٦٤م/١٥من جمادى الأولى ٥٥٩هـ، وقد حرص شيركوه على اتخاذ أقصى الشرق من ممتلكات الفرنجة، شرق الكرك والشوبك، ثم توجه إلى ميناء أيلة على خليج العقبة، ومن هناك اتجه إلى خليج السويس ومنها إلى بلبيس، بينما أبدى نورالدين حرصه على تأمين سيراً هادئاً لقادة جيشه، بمهاجمة أملاك الفرنجة القريبة من دمشق، فكان قصارى جهدهم أن يقوموا بحماية أملاكهم[3]، ويُقّر بعض المؤرخين المسلمين أن شاور كان كارها لقيادة شيركوه للحملة؛ لأنه كان يرغب أن يكون له التقدم على الحملة، أو على الأقل تكون قيادتها لآخر أقل قوة من شيركوه ليسهل له السيطرة عليه، وقد بدت أولى أمارات الارتياب التي أبداها شاور

([1]) Yaacov Lev, *Saladin in Egypt*, pp.55-56; Baldwin, *The Latin*, pp.549-550.

([2]) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٦٦- ٢٦٧.

([3]) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٨٤-٨٥، الباهر، ص١١٩-١٢١؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٦٦.

لشيركوه في أثناء دخولهما مصر بأن استحلفه شاور على ألا يتركه أو ينهزم عنه[١].

ولم يكن الملك عموري بعيداً عن تلك الأحداث؛ إذ تشير الوثائق الرسمية إلى فزع المملكة من خبر الجيش الضخم الذي بعثه نورالدين إلى مصر[٢]، ولم يكن في وسع الملك سوى أن يبعث برسله إلى ضرغام للمطالبة بمال الهدنة الذي اتفق معه عليه في العام السابق، ويحدد المقريزي هذا المبلغ بثلاثة وثلاثين ألف دينار، أي أنه لم يزد عما سبق ووعد به طلائع بن رزيك الملك بلدوين الثالث، وهذا يعني أيضاً أن حملة عموري السابقة لم تحقق أية نتائج مادية بخلاف إثارتها للمسلمين في بلاد الشام وتوجيه أنظارهم إلى خطورة ما قام به عموري في مصر على مستقبل سياسة المنطقة إذا ما استولى عليها في حملة أخرى، ويبدو أن عموري بعث رسله إلى ضرغام في ذلك الوقت كإيماءة ذكية منه، كيما يتعاون مع ضرغام ضد نورالدين وشيركوه، بيد أنه انشغل عنهم بالتصدي لشاور وشيركوه[٣].

والواقع أن ضرغام ارتكب أكثر من خطأ في تعامله مع حملة شيركوه، وكان ذلك في صالح شيركوه وشاور؛ إذ لم يبادر قادة ضرغام بمهاجمة جيش شيركوه في أثناء خروجه من صحراء المدخل الشمالي الشرقي لمصر عند صدر[٤] وهو في حالة رثة من جراء الرحلة الشاقة في الصحراء والمعاناة من نقص المياه، وهي فرصة

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٦٥-٢٦٧، ابن شداد: النوادر، ص٢٣؛ أبو شامة: الروضتين،جـ١، ق ٢، ص٤١٨-٤١٩. انظر أيضاً:

Gaufredi Fulcherii, procuratoris militæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.60-61; Rohricht, *Regesta*, no.405.See also: Rohricht, *Amalrich I*, pp.314-437.

(2) Bertrandi De Blankafort, magistri militiæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.80-81; Aymerici, patriarchæ Antiocheni, ad Ludovicum, in RHGF, t.XVI, pp.61-62.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٦٤.

(٤) كانت صدر على أيام ياقوت الحموي قلعة مهجورة خربة بين القاهرة وأيلة، بينما يحدد أبو شامة موقعها - نقلاً عن ابن أبي طي - بأنها شديدة القرب من القاهرة.انظر هامش المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٩٩.

طيبة للإجهاز على ذلك الجيش، وبدلاً من ذلك تباهى قادة ضرغام بقوتهم وظلوا في بلبيس ينتظرون وصول جيش نورالدين، وهنا أبدى شاور تفهمه الناضج للعقلية العسكرية المصرية، حينما وصف جنود ضرغام بأنهم من الحاكة والفلاحين، ممن يجمعهم الطبل وتفرقهم العصا ولا يلبثون في ساحة الحرب إذا حمي الوطيس، وبرهنت الأحداث التالية التي أدت إلى فرارهم على صدق رأيه فيهم[١].

ومن جهة ثانية قام ضرغام بأكثر من حماقة أفقدته تأييد بعض عناصر جيشه ورعيته، كان منها قتله لمعظم الأمراء المصريين الذين ارتاب في مراسلتهم لشاور، مما أدى إلى انقلاب بعض العساكر على ضرغام، منضمين إلى صفوف شاور، ثم أقدم ضرغام على خطوة أجهزت على ما بقي له من ثقة في نفوس رعاياه وهي استيلائه على أموال الأيتام للإعداد لصد جيش شاور، وكانت ثالثة الأثافي في سماح ضرغام لشاور الاتصال بالخليفة الفاطمي العاضد لدين الله (١١٦٠-١١٧١م/٥٥٥-٥٦٧هـ) الذي نبذ دعمه لضرغام وأبدى ترحيبه بشاور، وعلى الرغم من الضعف الذي كان يعانيه مركز الخليفة منذ فترة طويلة مضت فقد فاق وضعه الرمزي في قوته سلطة الوزير ضرغام وهو في ذلك المأزق[٢].

أما الأمر الأخطر الذي وقع فيه ضرغام فهو تأخره في مراسلة الملك عموري للاستعانة به وقد جاءته الفكرة مؤخراً، حينما حاصره كل من شيركوه وشاور في القاهرة وبدا ضرغام عاجزاً عن السيطرة على الوضع الذي خرج من يده بالفعل، وبينما يُقرّ المقريزي أن عموري رفض الاستجابة لرسل ضرغام إلا بأوامر صريحة من الخليفة العاضد بطلب المساعدة[٣] فإن وليم الصوري يشير إلى سرعة استعداد الملك عموري لتلبية نداء ضرغام، بيد أن الوقت قد فات حيث حُوصرَ ضرغام وفقد جيشه كلية، وعندها قتل في٢٢من مايو١١٦٤م/ ٢٨من جمادى الآخرة ٥٥٩هـ، فلم

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٦٦-٢٦٧؛ أبو شامة: الروضتين،جـ١، ق ٢، ص٤١٩-٤٢٠.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٦٧-٢٧٣.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٧٦.

يجد عموري فرصة للتدخل بسبب غلبة كفة شاور وشيركوه[١].

وبعد أيام قلائل صعد شاور إلى دار الوزارة في القاهرة وتسلم الوزارة في ٢٦من مايو١١٦٤م/٣من رجب ٥٥٩هـ، ويشير المقريزي إلى توجه شيركوه إلى بلبيس في اليوم الذي اعتلى فيه شاور الوزارة، وعقب ذلك حدث الخلاف بين شيركوه وشاور مما دفع شاور إلى استدعاء الملك عموري للتصدي لشيركوه[٢]. ويشير وليم الصوري إلى استعانة شاور بشيركوه لطرد ضرغام من مصر، وحينما تم لشاور ذلك عدل وليم الصوري عن باقي ما ذكرته المصادر الإسلامية قائلاً إن شيركوه سعى إلى الاستيلاء على مصر من شاور، وكانت أولى خطوات شيركوه لتحقيق ذلك استيلائه على بلبيس وادعائه أنها من حقه[٣].

وعلى العكس تُكرّر معظم المصادر الإسلامية التي تعرضت لهذه الحقبة التاريخية رواية تنكّر شاور لشيركوه ولوعوده لنورالدين، تلك الوعود التي تقضي بأن يكون دخل مصر مثالثة بين نورالدين وشاور والعاضد، وأن يكون شاور في مصر طائعاً لأوامر نورالدين، على أن يبقى معه شيركوه في مصر نائباً عن نورالدين، وقد ادعى شاور أنه لم يستعن بجيش نورالدين وعلى رأسه شيركوه إلا لمهمة طرد ضرغام من الوزارة وإعادة شاور إليها فإذا تم ذلك فإن بقاء جيش شيركوه في مصر لم يعد له مبرراً، ثم أرسل شاور لشيركوه خمسين ألف دينار وطالبه بالرحيل عن مصر[٤].

ويبدو من التسلسل الطبيعي للأحداث أن شاور لم يكن ينوي الاستعانة بالملك

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية،جـ٤، ص٢٩.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٧٣-٢٧٨. وكذلكً: أبو شامة: الروضتين، جـ١،ق٢، ص٤٢٠.

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٢٩.وأيضاً:

Ernoul, *Chronique*, pp.18-20; Bertrandi De Blankafort, magistri militiæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp. 80-81.

(٤) ابن شداد: النوادر، ص٢٣؛ أبو شامة: الروضتين،جـ١، ق٢، ص٣٣٢-٣٣٧، ٤٢٠-٤٢١، ٥٠١؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٦٢-٢٦٣؛ ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٣١٥-٣١٦؛ ابن الأثير: الكامل،جـ٩، ص٨٥، الباهر، ص١٢١.

عموري في البداية، وذلك لأنه ظل يقاوم الهجمات الشرسة التي قام بها شيركوه ضده في القاهرة من ٢٦من مايو/٣من رجب حتى اتصال شاور بالملك عموري في بداية يونيو/أواخر شعبان وأواخر يوليو/بداية رمضان[١]، وذلك لأن أحد خطابات عموري تشير إلى تحرك الملك من المملكة نحو مصر بناء على استغاثة شاور به في الأول من يوليو ١١٦٤م[٢]، أي التاسع من شعبان ٥٥٩هـ، وقد ذكر المقريزي وصول عموري إلى بلبيس في الأول من أغسطس ١١٦٤م/الحادي عشر من رمضان ٥٥٩هـ وهذا يعني أن شاور ظل يقاوم حصار شيركوه له في القاهرة لأكثر من شهر.

على أية حال تمكن شيركوه من إحكام حصاره على شاور في القاهرة، وأحرق بها عدة شوارع كما أحدث ثغرة في عدة أجزاء من أسوار القاهرة وكاد يستولي عليها، ولاريب أن شيركوه أفاد من مرافقته لشاور في حرب ضرغام في التعرف على أسلوبه القتالي وخططه كما جاس معه شوارع القاهرة والفسطاط طولاً وعرضاً، ولمس مواطن القوة والضعف فيهما، وربما لأجل ذلك قرر شاور الاستعانة بالملك عموري، بيد أنه كان واضحاً في مفاوضاته مع الملك عموري على عكس ما فعل ضرغام.

ويبدو أن شاور أكمل مرحلة المفاوضات التي توقفت مع ضرغام من قبل، بحيث بذل له شاور وعوداً مغرية تفصح عن تفهم شاور لبعض موازين القوى في المملكة، فمن ناحية أثار لدى الملك عموري حفيظة الخوف من امتلاك نورالدين لمصر بما لا يبق للفرنج مقام في بلاد الشام، ومن ناحية أخرى أوضح شاور للملك عموري أن وجود شيركوه في مصر لم يكن إلا عن مساعدة تجاوز شيركوه حدها، وفي الوقت ذاته بذل شاور للملك ألف دينار عن كل مرحلة من مراحل الطريق التي سوف يقطعها في قدومه إلى مصر، فكانت سبعاً وعشرين مرحلة، أي أن يحصل عموري على سبع وعشرين ألف دينار من شاور عندما يقدم إلى مصر، إضافة إلى

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ١، ق٢، ص٢٧٣-٢٧٦.

(2) Gaufredi Fulcherii, procuratoris militiæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.60-61.

وعد شاور لعموري بإطلاق سراح جميع الأسرى الصليبيين في مصر، والأمر الآخر الذي ينم عن فطنة شاور أنه بذل بعض الأموال للاسبتارية إذا ما شاركوا في حملة الملك لمساعدة شاور في مصر، علاوة على الأمور الأخرى الفرعية مثل المبالغ المقررة سنوياً وعلف الدواب وغيرها، وذلك في مقابل حصول شاور على دعم عموري[١].

هذا وتشير سرعة تحرك الملك عموري إلى مصر إلى أنه لم يفكر ملياً في عواقب تدخله فيها في هذه الحملة، لأنه سبق وفكر بالفعل في عواقب نجاح شيركوه في أثناء خروج جيشه إلى مصر وخلال مفاوضات ضرغام مع الملك نفسه، بحيث كانت استغاثة شاور به القشة التي يبحث عنها الغريق حينما لا يجد سوى المياه من كل جانب، ولم يبال عموري بمحاولات نورالدين منعه من الخروج بمهاجمة أملاكه؛ لأنه رأى -على حد رؤية ابن الأثير- أن الخطر في بقائه أشد من خروجه إلى مصر لمساعدة شاور "فلما بلغ نورالدين خبر تجهيزهم للمسير سار بعساكره إلى طرف بلاده مما يلي الفرنج ليمتنعوا عن المسير فلم يمتنعوا؛ لعلمهم أن الخطر في مقامهم إذا ملك أسدالدين مصر أشد من الخطر في مسيرهم، فتركوا في بلادهم من يحفظها وسار ملك القدس في الباقين إلى مصر[٢]".

ولكن من أين حصل الملك عموري على جنود هذه الحملة؟ وكيف ترك مملكته في غيابه؟ من الواضح أن عموري استفاد إلى حد ما من جماعات الحجاج الصغيرة التي وصلت إلى المملكة منذ قليل في أخذ بعضهم معه، وإبقاء بعضهم الآخر في المملكة للدفاع عنها، ومن ناحية أخرى ترك عموري قيادة الدفاع عن المملكة في عنق

---

(١) انظر في ذلك: المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٧٦-٢٧٧؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٢٩؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٢١. وكذلك:

Aymerici, patriarchæ Antiocheni, ad Ludovicum, in RHGF, t.XVI, pp.61-62; Amalrici, Regis Hierusalem, ad Henricum, in RHGF, t. XVI, pp.187-188.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٨٥، الباهر، ص١٢١.

كل من إيمري بطريرك أنطاكية وبوهيمند الثالث أمير أنطاكية[١]، أما جماعتا الداوية والإسبتارية فإنهم شاركوا في الحملة بأعداد قليلة لم تحددها المصادر المعاصرة، خصوصاً أن فرسان الإسبتارية والداوية كانوا ممن قاموا بدور كبير في معركة حارم عام١١٦٤م/٥٥٩هـ التي حدثت في الوقت الذي كان يحاصر فيه عموري شيركوه في بلبيس، ولذا فإنهم شاركوا في الحملة على مصر ولكن على نطاق ضيق[٢].

ويُشير ابن أيبك الدواداري إلى أن عموري اصطحب معه جيش كبير إلى مصر[٣]، وأكد جيوفري مقدم الداوية في أنطاكية -في خطابه إلى لويس السابع- أن الملك أصطحب معه أعداداً كثيرة من الأراضي المقدسة[٤] ومن ناحية أخرى - وبشكل غير مباشر - يشير وليم الصوري إلى خلو المملكة من معظم قوتها في الوقت الذي توجّه فيه نورالدين للاستيلاء على بانياس بعد معركة حارم، وعلل وليم الصوري هذا الوضع بأخذ الملك لمعظم القوة الحربية للمملكة معه إلى مصر[٥].

وأما عدة جيش شيركوه فإنه لم يخرج من بلاد الشام في جيش كبير، لأن نورالدين لم يبعث معه إلا ما يزيد عن حاجته هو في بلاد الشام، علاوة على وصف شيركوه لما معه من قوة بأنها شرذمة قليلة، ربما لا يمكنها التغلب على ستة آلاف

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٢٨-٣١؛ ابن الأثير: الكامل،جـ٩، ص٨٥، الباهر، ص١٢١. وانظر أيضاً:

Amalrici, Regis Hierusalem, ad Henricum, in RHGF, t. XVI, pp.187-188; Rohricht, *Regesta*, no.404, 406, 407.

(٢) عن مشاركة الإسبتارية في معركة حارم انظر:

Gaufredi Fulcherii, procuratoris militæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.60-61; Aymerici, patriarchæ Antiocheni, ad Ludovicum, in RHGF, t.XVI, pp.61-62.

(٣) ابن أيبك: الدر المطلوب، جـ٧، ص٢٧. وانظر أيضاً: المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٧٧.

(4) Gaufredi Fulcherii, procuratoris militæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.60-61.

(٥) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٣٤-٣٦.

فارس مصري في بلبيس[1]، بما يشير إلى عدم تعدي قوة شيركوه لذلك العدد، بينما تشير خطابات عموري وإيمري إلى لويس السابع إلى قوات شيركوه بأنها كانت آلافاً مؤلفة، على حين بالغت إحدى الوثائق في تقدير عدد جنود شيركوه الذين حُوصروا معه في بلبيس بحوالي ثلاثين ألفاً[2]، بيد أنه تقدير مبالغ فيه للغاية لأن قوة نورالدين ذاتها في بلاد الشام كانت تُقّدر ما بين عشرة وخمسة عشر ألفاً عندما استولى نورالدين على دمشق عام ١١٥٤م/٥٤٩هـ، ولم يكن ليبعث بها كاملة مع شيركوه، وبخاصة أنه كان ينظر إلى هذه الحملة على أنها مجرد عملية استطلاع لأحوال مصر وإعادة شاور إلى منصبه.

وبالرغم من انضمام بعض القبائل العربية الكنانية إلى شيركوه وبعض عسكر مصر عقب إعلان شاور عن معاداته لشيركوه فإن جيشه لم يكن ليصل إلى ثلاثين ألفاً، ولما أجبر شيركوه نفسه على الاحتماء بمدينة صغيرة مثل بلبيس ولهاجم شاور وعموري في الحال دون اللجوء لذلك التصرف الدفاعي، ومن جانب آخر فإن عدد جيش عموري لم يكن كبيراً هو الآخر، استناداً إلى تجمد وضع الحرب بين شيركوه وبين شاور وعموري حول بلبيس، بالرغم من الأخطار التي سمع بها عموري عما يواجهه الفرنجة في بلاد الشام، ومن ثم فقد كان لدى عموري من الدواعي المقنعة لإنهاء هذا الوضع الجامد بأي شكل ولو بمعركة فاصلة بيد أنه لم يفعل ذلك، وذلك على افتراض عدم ثقته بما معه من قوة.

أياً ما كان الأمر فإن تطور الأحداث يُشير إلى توجه شيركوه إلى بلبيس عقب علمه بوصول عموري إلى مصر لمساعدة شاور ضده، وكان وصول عموري إلى مشارف بلبيس يوم السبت الأول من أغسطس ١١٦٤م/الحادي عشر من رمضان٥٥٩هـ، وعلى الرغم من إشارة بعض وثائق المملكة إلى تحرك عموري من المملكة في أول أغسطس/١١رمضان ولم يصل إلى مصر إلا في آواخر أغسطس[3]

([1]) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٦٥، ٢٦٧؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤١٨-٤١٩.

[2] - Rohricht, *Regesta*, no.407.

([3]) Gaufredi Fulcherii, procuratoris militæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF,

أي بدايات شوال فإنه تحديد يفتقر إلى الدقة؛ لأن الملك كان متسرعاً في تحركه إلى مصر خوفاً من وقوعها في يد شيركوه، والمعتاد أن يستغرق الطريق إلى بلبيس من عشرة إلى خمسة عشر يوماً تقريباً وربما أقل من ذلك[1]، مما يعني أن الملك إذا كان قد تحرك من المملكة في أول أغسطس/١١من رمضان فهذا يستدعي أن تكون أحداث معركة حارم قد سبقت وصول عموري إلى مصر، بينما تشير المصادر إلى وصول أخبار هزيمة الفرنج في حارم للملك عموري أثناء حصاره بلبيس بالفعل وليس قبل ذلك، وقد حدثت موقعة حارم في ١٢من أغسطس ١١٦٤م/٢٢من رمضان ٥٥٩هـ، أي بعد وصول الملك إلى مصر بحوالي أحد عشر يوماً تقريباً.

وقد دل اتخاذ شيركوه لمدينة بلبيس بوصفها قاعدة مبكرة له وجمعه بها الإمدادات والمؤن وإعمال ما يلزم لحالة تقهقره إليها على بعد نظره وسعة أفقه، وقد حدث ذلك عقب تنكّر شاور له في وعوده وقبل استدعائه للملك عموري بحوالي شهر تقريباً، ولم تكن هذه المدة كافية لجمع الكثير من الإمدادات التي تولى صلاح الدين أمرها، ومن ناحية أخرى فإنها لم تكن مدة كافية أيضاً لتحصين مدينة ضعيفة مثل بلبيس، عليها سور قصير من لبن وبها حصن من لبن، بناه الصالح طلائع بن رزيك[2]، ولذا فإن المدينة لم تكن لتتحمل عملية حصار طويلة الأمد مثل هذه؛ حيث دار الحصار عليها وبها شيركوه وجنده حوالي ثلاثة أشهر، على تقدير أغلب مصادر تلك الفترة، بدءاً من وصول عموري إليها وحتى حدوث الصلح وخروج شاور منها في ١٩من أكتوبر١١٦٤م/غرة ذي الحجة ٥٥٩هـ[3]، ولكن لم يبدُ أن عموري قام

---

t. XVI, pp.60-61.

([1]) ويفهم هذا من معرفة أن صلح أسد الدين على بلبيس كان في غرة ذي الحجة ووصل دمشق في ١٣من ذي الحجة من السنة نفسها، هذا بالرغم من خطورة الطريق إلى دمشق، بينما لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لبيت المقدس. انظر: المقريزي: اتعاظ الحنفا،جـ٣، ص٢٧٨.

([2]) انظر في ذلك: المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٣٦-٢٧٧؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، جـ٧، ص٢٧؛ ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٨٥، الباهر، ص١٢١-١٢٢.

([3]) ابن الأثير: الكامل، جـ٨، ص٨٥، الباهر، ص١٢٢؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٢٢-٤٢٣؛ ص٢٣٦؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، جـ٧، ص٢٧؛ البنداري: سنا البرق، ص١٩؛

بعملية حصار شاملة للمدينة على الرغم من ضعفها وسهولة الاستيلاء عليها، علاوة على حرص شيركوه على عدم الزج بقواته في مغامرة يعرف مقدماً أنه سوف يخسرها، وعليه فقد تجمد الوضع الحربي بين الطرفين.

ويُقدّم أبو شامة رواية أشار فيها إلى أسباب الصلح الذي تم في بلبيس بين عموري وشيركوه، بأنه نجم عن إرسال نورالدين برؤوس قتلى الفرنج في بانياس وأعلامهم إلى شيركوه في بلبيس؛ ليرفعها على أسوار المدينة التي يحاصرها الفرنج وبذلك تهن عزيمتهم ويفت في عضدهم، وبناء عليه قلق عموري ورجاله على الفرنج في بلاد الشام، ولذا فإنه قرر عقد الصلح ورفع الحصار[1]. وعلى الرغم من المنطقية التي تفوح من تلك الرواية فإنها رواية ضعيفة تحمل في داخلها تناقضات تجعل الباحث لا يأخذ ببعض ما جاء فيها. إذ تفترض الرواية أن عموري لم يدر بما حدث للصليبيين في بلاد الشام إلا بقدوم هؤلاء الرسل، وهذا يتعارض ضمناً مع حقيقة أن عموري كان له خط اتصالات مفتوح مع المملكة بعكس حال شيركوه الذي كان محبوساً عن العالم تقريباً بسبب الحصار هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فإنه يصعب وصول أي رسل إلى شيركوه بأية حال عقب استيلاء نورالدين على بانياس وإغارته التالية على طبرية، وذلك لأن المصادر الصليبية تحدد يوم ١٨من أكتوبر١١٦٤م تاريخاً لاستيلاء نورالدين على بانياس[2]، وهي تقابل الأحد ٢٩من ذي القعدة ٥٥٩هـ، وأما المفارقة فإنما انسحاب شيركوه عن بلبيس يوم ١٩من أكتوبر/غرة ذي الحجة من العام نفسه، أي في اليوم الثاني بما لا يتيح وصول رسل من بلاد الشام إلى مصر في تلك المدة القصيرة.

ومن ناحية ثالثة تقدم بعض المصادر تفسيراً للصلح بأن عموري كان يسعى من جهته، حينما جاءته أخبار حارم، إلى إدراك بانياس قبل استيلاء نورالدين عليها، وأنه أسف بشدة على فقدان حارم الحصن الأمامي لأنطاكية، مما جعله يبادر بالمفاوضات

المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٧٧؛ ابن شداد: النوادر، ص٢٣.

([1]) أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٢٢-٤٢٣(وهي رواية ابن أبي طي).

([2]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٣٥.

التي انتهت بعقد الصلح[1]. والواقع أن عموري كان متأخراً في الاستجابة لما كان يحدث في حارم ومن بعدها بانياس؛ إذ كان وصول الملك إلى مشارف بلبيس كما أشار الباحث من قبل في الأول من أغسطس١١٦٤م/الحادي عشر من رمضان ٥٥٩هـ، ثم دارت عمليات الحصار[2]، وبعدها بقليل في ١٢من أغسطس/٢٢من رمضان استولى نورالدين علي حارم بعد هزيمته للصليبيين.

وعلى افتراض أن الأخبار وصلت عموري بعد حدوث معركة حارم بعشرة أيام، وهي ليست بأخبار عادية، فالمفترض في ظل قلق عموري على الصليبيين - وهو يدرك تماماً أنه صاحب السلطة والقرار في أمر حصار بلبيس - أن يتحرك على الفور لإدراك بانياس قبل أن تقع في أيدي نورالدين مثلما وقعت حارم، لا أن ينتظر لأكثر من ستة وثلاثين يوماً في حصار هش لمدينة ضعيفة مثل بلبيس، لا يحيط بها سوى سور من لبن قصير وليس لها خندق في مقابل وجود بعض أبراج الحصار لدى عموري، بينما كان وضع شيركوه حرجاً بسبب مقتل الكثيرين من جنوده، واستمالة شاور لبعضهم الآخر، ورفض رجال شيركوه شن هجوم فوري في بداية الحصار، ثم فقده للمئونة بسبب طول عملية الحصار التي امتدت لثلاثة أشهر، ولذا فإن أياً ما كان لدى شيركوه فإنه لاريب نافذ، وزاد وضعه الحرج عدم وصوله أية إمدادات من نورالدين ولا أية أخبار عنه، بحيث كان شيركوه محاصراً تماماً، ولم يعرف تقريباً بما حققه نورالدين في بلاد الشام[3].

وعند هذه النقطة يقف الباحث أمام تلك المسلمة التي أقرتها بعض المصادر التي

---

(1) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٣٥؛ ابن أيبك: الدر المطلوب،جـ٧، ص٢٧-٢٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٣٤٧-٣٤٨؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٧٧-٢٧٨؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٣٣٥-٣٣٦؛ ابن الأثير: الكامل،جـ٩، ص٨٥-٨٦؛ الباهر، ص١٢٢؛ ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٣٢١-٣٢٢.

(2) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٧٤-٢٧٩.

(3) أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٢١-٤٢٣؛ ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٨٥، الباهر، ص١٢١-١٢٣؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٧٧؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، جـ٧، ص٢٧؛ البنداري: سنا البرق، ص١٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٣٤٧-٣٤٨.

روت تلك الأحداث، وهي أن الصلح إنما تم بسبب رغبة عموري في إدراك بانياس قبل أن يستولى عليها نورالدين؛ إذ ينبغي إعادة النظر إليها على ضوء أن عموري كان أمامه الوقت الكافي للانسحاب من مصر وإنقاذ بانياس على الأقل؛ إذ كان أمامه شهر على أسوأ تقدير لإدراكها، أما الأسباب الحقيقية فإنها ترتكن إلى حقيقة أخرى تتعلق بوجود شيركوه في مصر؛ إذ لم يُرد الملك عموري الذي رأى في مصر حلمه الذي سيحمي به المملكة من الانهيار أن تقع في يد ألد أعدائه ويتركها له بهذه السهولة؛ إذ يبدو أنه عقد مقارنة في ذهنه بين مصر، إذا ما سقطت في يد شيركوه، أي خسارة عموري لها، وبين خسارته لحارم التي لم تكن من أملاكه، وبين بانياس التي توجه إليها نورالدين ولم يكن عموري يعلم مصيرها بعد؛ إذن كان موقفه يرتكن إلى ضرورة خروج شيركوه من مصر - إن لم يقض عليه - وهنا تظهر الحقيقة الثانية، وهي الهدف من هذا التساؤل؛ إذا كان موقف عموري تجاه إدراك بانياس يتوقف على ضرورة خروج شيركوه من مصر فلماذا لم يقم بمهاجمته وهو يعلم أن المدينة ضعيفة وأنها قد لا تصمد لهجوم عنيف تقوم به قواته وقوات شاور؟

تكمن الاجابة في جعاب شاور الدبلوماسية - الذي لم يكن عموري يُقّدره حق قدره - آنذاك ولعدة سنوات تالية - لأنه كان في ورطة كبرى بوجود هاتين القوتين في مصر، وسواء كان عموري حليفاً له أم جاء طامعاً في مصر، فإنه في كل الأحوال سيسعى للاستيلاء على مصر في اللحظة المناسبة، وكانت حملته السابقة برهاناً جلياً على ما في نفسه، ومن ناحية أخرى لن يتورع شيركوه إذا ما نجح في مصر عن رد الصاع لشاور، ولذا فقد كان على شاور أن يتلاعب بعموري مثلما سبق وصعد إلى الوزارة على أكتاف شيركوه؛ فأخذ يرسل إلى رجال عموري خلال عمليات الحصار، يُخدّرهم بالأموال حتى لا يُحرّكوا في الملك تصعيد الهجوم على بلبيس، بحيث لا ينفرد عموري بأي انتصار، ومن جهة ثانية سعى شاور إلى اكتساب بعض رجال شيركوه بما يُضعف من موقفه ودون أن يقضي عليه، وطالما استمر الموقف فإن شاور يضمن عدم انفراد أي من عموري أو شيركوه بالموقف في مصر، حتى تصل الأحداث إلى ما وصلت إليه من وصول كل من عموري وشيركوه إلى وضع لا يتمكنان معه من

الاستمرار في الفعل ورد الفعل[1].

والحق أن المصادر المتاحة لا تعطي إجابة واضحة عمن استهل مفاوضات الصلح، وبخاصة أن المصادر الإسلامية وافقت المصادر الصليبية في التردد والاختلاف حول من بادر بطلب الصلح أولاً[2]، ولاريب أن كلا من عموري وشيركوه كانا في حاجة إلى الصلح، فالملك عموري يتحرق شوقاً لإنهاء هذا الوضع الجامد للعودة إلى بلاد الشام، بسبب الأحداث الأخيرة التي مرت بها المملكة، إضافة إلى أن ظروف الطقس في هذا الوقت من العام كانت شديدة الحرارة، بما لا يحتملها عموري وجيشه الذي مل القتال، ولم يُقدّم شاور للملك عموري من المساعدة الإيجابية ما يكفي لحسم الحصار، بل كان يسر شاور أن ينتهي الحصار دون حسم الموقف في معركة لأحدهما[3]، وأما شيركوه فإنه كان ينقصه الإمدادات، علاوة على قتل بعض جنوده وحلفائه من الكنانين، وسوء وضع الدفاع في المدينة وانقطاع أخباره عن سيده نورالدين، وازدياد إحساس شيركوه بالغربة في بلد غريبة عنه، معظم ما فيها من أرض ورعايا وحكام أعداء له[4]، ولذا فإنه هو الآخر كان في عوز إلى الرحيل عن مصر ولكن دون أن يُمكّن عموري منها. ويتضح من شروط الصلح أنها تلبي احتياجات كل منهما في أن يخرجا من مصر بغض النظر عمن بادر بطلب الصلح،

---

(1) انظر: أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٢٢-٤٢٣؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٧٨-٢٧٩.

(2) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٢٩؛ ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٨٥، الباهر، ص١٢٢-١٢٣؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٧٧-٢٧٨، أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٢١-٤٢٣؛ ابن شداد: النوادر، ص٢٣-٢٤.انظر أيضاً:

Gaufredi Fulcherii, procuratoris militæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.60-61; Aymerici, patriarchæ Antiocheni, ad Ludovicum, in RHGF, t.XVI, pp.61-62; Bertrandi De Blankafort, magistri militiæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.80-81; Amalrici, Regis Hierusalem, ad Henricum, in RHGF, t. XVI, pp.187-188.

(3) أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٢٢-٤٢٣.

(4) أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٣٦٤-٣٦٥؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٧٨.

لأنها بحق مسالة شائكة يصعب تقريرها.

عند هذه النقطة انتهت حملة عموري ولكن ماذا حقق الملك في مصر؟ هذا يستدعي تذكر هدف الحملة، وهو منع شيركوه من الاستيلاء على مصر، ومحاولة إيجاد فرصة تمكن عموري منها، وبرغم كل الظروف فإن عموري نجح في تحقيق هذا الهدف بالفعل، لأنه لم يتحرك إلى مصر بروح المبادرة النابعة من داخله، وإنما بناء على طلب خارجي، بيد أنه لم يتمكن من تحقيق الهدف الثاني نهائياً، ولكنه أثبت لشاور حسن نيته تجاهه، وأصبح للملك عموري مغرس قدم لدى شاور وفي مصر، وهي بادرة للعلاقات التي جمعت بين عموري وشاور فيما بعد، لمنع امتداد نفوذ نورالدين إلى مصر.

ولا تقدم المصادر المعاصرة أية إدانة للملك عموري تجاه ما حدث في بانياس[1]، والواضح أن معركة حارم كانت صورة قريبة إلى حد ما مما حدث في معركة أنب - منذ عقد تقريباً - التي قُتل على إثرها ريمون بواتييه أمير أنطاكية ودمر نورالدين جيش أنطاكية وواصل هجماته على المدينة حتى وصل إلى ساحل البحر المتوسط، وبالرغم من ذلك لم يقم نورالدين بمهاجمة أنطاكية، ولم يستطع بلدوين الثالث أن يُغير من وقع هزيمة معركة أنب أو أن يردع نورالدين مع أنه لم يكن منشغلاً في حملة مثل عموري، وهذا في حد ذاته يبرر للملك عموري قيامه بحملته على مصر؛ لأنه إذا كان يتبارى هو ونورالدين في بلاد الشام فإنه يتعين عليه أن يباري نورالدين في الأماكن الأخرى التي تشكل خطراً في المستقبل على أمن المملكة وفي صراعه معه على بلاد الشام.

لقد قر في عقلية الصليبيين المعاصرين أن مصر مهمة بالنسبة لأمن المملكة وكان عموري ينظر إليها وهو ينظر إلى مستقبل مملكة بيت المقدس، الاثنتين في صورة واحدة، وكان الشعور العام آنذاك معبراً بفزعه ورعبه عن خطورة استيلاء

([1]) عن مسئولية عموري عما حدث في بانياس قارن ما ورد لدى:

Baldwin, *The Latin*, pp.550-551; Gibb, *Nur ad-Din*, p.524; Richard, *Le Royaume Latin*, p.52.

نورالدين على مصر عام ١١٦٤م/٥٥٩هـ، ولم يُوجّه أحد ممن كتب إلى لويس السابع أو ممن أرخ لسياسة عموري في هذه المرحلة أي نقد له حيال ما حدث في حارم؛ ربما لأن حارم كانت من أملاك الأمير بوهيمند الثالث وليس الملك عموري، وكان بوهيمند الثالث المسئول عن رعاية المملكة في غياب الملك[١].

أما عن المكاسب المادية فقد أفاد الملك كثيراً من هذه الحملة، خصوصاً أن خسائره المادية والبشرية كانت قليلة؛ لأن الاشتباكات ذاتها كانت قليلة، وقد حصل الملك على تأكيد من شاور بمبلغ سنوي ثابت، علاوة على حصول عموري على ألف دينار عن كل يوم قضاه في مصر[٢]، وقد قاربت مدة بقائه على ثلاثة أشهر بما يُوحيّ أنه ربما حصل على ما يقارب تسعين ألف دينار، هذا فضلاً عن ما بذله له شاور من مبلغ مقدر بسبعة وعشرين ألف دينار مقدماً للملك[٣]، ولا يجب أن يُنسى أن عموري لن يكون قلقاً على مئونة جيشه من الطعام والشراب - وربما السلاح فيما بعد - طالما يحارب دفاعاً عن مصر لا غازياً لها.

ولا ينبغي المبالغة في تقدير النفوذ السياسي والعسكري الذي حققه الملك عموري في مصر في هذه الحملة، لأنه يكاد يكون معدوماً، فبقدر استدعاء شاور للملك فإنه لم يكن يثق به ولا بمساعدته، بحيث خشي شاور إن انتصر عموري على شيركوه أن يقوم عموري بالاستيلاء على بلبيس كحق أخذه بساعده، وقد تأكدت بعض شكوك شاور في الملك في مراسلاته التالية لنورالدين، طالباً منه صرف شيركوه عن الاهتمام بمصر والتفكير بها، وفي استنكار شاور الشديد لقدوم عموري في الحملة الثالثة، ولم يسمح شاور بتقدم عموري إلى مصر إلا حينما أيقن أن عموري قدم

([1]) Aymerici, patriarchæ Antiocheni, ad Ludovicum, in RHGF, t.XVI, pp.61-62; Bertrandi De Blankafort, magistri militiæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.80-81; Amalrici, Regis Hierusalem, ad Henricum, in RHGF, t. XVI, pp.187-188; Gaufredi Fulcherii, procuratoris militæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.60 -61.

([٢]) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٧٧.

([٣]) أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٣٣٥، ٤٢١.

لإعانته ضد شيركوه عام ١١٦٧م/٥٦٢هـ[١] على ما سيشير الباحث بعد قليل.

وقضى الملك عموري عامي ١١٦٥-١١٦٦م/٥٦٠-٥٦١هـ في التصدي لهجمات نورالدين على الحصون الواقعة على منحدرات جبال لبنان، بينما كان شيركوه يُغير على إقليم ما وراء نهر الأردن[٢]، ولكن سرعان ما أدت الظروف إلى تدخل كل من عموري ونورالدين في مصر مرة أخرى، ولم يكن عموري هو البادىء في التحرك إليها وإنما كان شيركوه الذي قاد جيش نورالدين إلى مصر مما اضطر عموري إلى التدخل لمنعه من الاستيلاء عليها، ومن ناحية أخرى لم يرسل الملك عموري، هو أو غيره أية رسالة استغاثة إلى الغرب الأوروبي خلال أحداث هذه الحملة، ومن ناحية أخرى لم تهدأ الأحداث التي أثارها نورالدين في بلاد الشام عقب معركة حارم، كما لم يصل الملك عموري رداً من بيزنطة عن العروس التي بعث في طلب يدها خلال وجوده في أنطاكية عام ١١٦٥م/٥٦٠هـ، بل ظلت سفارة عموري في بيزنطة لمدة عامين تاليين دون أن تتلقى أي رد، ومن ثم فإن هذه الأوضاع لم تكن مما يبشر بحدوث جديد في وضع المملكة يقود إلى قيام عموري بهذه الحملة، بل إن دور الإمدادات الغربية تجاه المملكة كان باهتاً خلال هذه الفترة، بحيث لم تُشِر المصادر إلى قدوم أي منها، مما يستدعي التعرض لأسباب قيام عموري بهذه الحملة التي تلقب بالحملة الثالثة على مصر عام ١١٦٧م/٥٦٢هـ.

كان الطمع الأعمى هو الهدف المسيطر على دوافع هذه الحملة، وقد أشار وليم الصوري إلى رؤية شاور لهذا الطمع، بما بدا من ذعره واضطرابه حينما علم بقدوم

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٤١.

(٢) استولى شيركوه على قلعة شقيف تيرون، أما القلعة التي دمرها للداوية فيرجح رنسمان أنها ربما تكون مغارة الكهف الواقعة إلى الجنوب الشرقي من عمان.انظر:وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٣٨؛ ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٩٤، الباهر، ص١٣١؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٣٦٠؛ ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٣٢٢.

ويشير رنسمان في وصفه للقلعة التي دمرها شيركوه إلى أنها ربما حوت خرائب رومانية وإن لم يكن بها ما يدل على عمائر تعود إلى العصور الوسطى.انظر: رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٦٠٠.

عموري على رأس جيشه إلى مصر، وهذا يفترض ضمناً أن شاور لم يكن يعلم شيئاً عن تقدم شيركوه إلى مصر، ذلك أن وليم الصوري يوضح أن عموري رد على رسل شاور بأنه قادم لمساعدته إزاء تحرك شيركوه نحو مصر قبل عموري بقليل، ولم يطمئن بال شاور إلا بتأكده من صدق عموري بالفعل[١]، بيد أن الرواية على هذه الصورة تحمل شيئاً من المبالغة؛ لأنه يصعُب أن يغفل شاور عن اختراق جيش كامل إلى أرضه دون أن يعلم بذلك وإلا لما علم بقدوم عموري ذاته، حيث اتضح من خلال الأحداث السابقة أن أخبار القطاع الشمالي الشرقي لمصر كانت تصل إلى القاهرة مباشرة عن طريق بلبيس، وهذا يعني أن وليم الصوري حاول أن يُبرّر زحف عموري نحو مصر طالما أن شاور لم يستدع الملك، ومن جهة أخرى لم يمانع شاور من قدوم عموري، وذلك امتداداً لما كان يخشاه شاور مما يضمره له شيركوه من جراء تصرف شاور تجاهه في الحملة السابقة[٢].

وتشير بعض المصادر – في أسباب مهاجمة شيركوه لمصر في هذه الحملة - إلى خوف نورالدين وشيركوه من حدوث بعض الاتصالات السرية بين عموري وشاور؛ خوفاً من امتلاك الفرنج لمصر، ويُشير آخرون إلى الرغبة الشديدة لدى شيركوه للانتقام لنفسه ولجيشه مما قام به شاور ضده في الحملة السابقة[٣]، وبالغت آراء محدثة في وصف دوافع شيركوه بأنه كان يرغب في الاستيلاء على مصر ليريح

---

(١) انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٣٩-٤٠.

(٢) أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٢٤.ويشير أبو شامة عن ابن أبي طي إلى أن عموري وصل أسرع من شيركوه؛ لأنه أبحر مسرعاً بينما كان شيركوه يسير براً، ولذا فقد وصل الملك إلى مصر قبله، وقد أقر ابن أبي طي أن عموري أرسل إلى شاور يخبره بأمر شيركوه، فطلب منه شاور *"إعادة النجدة والمقرر من المال يصل إليه على ما كان يصل إليه في العام الماضي"*، ولعل شيركوه عدل عن بلبيس لعلمه باجتماع عموري وشاور بها، لذا عرج على الجنوب إلى أطفح بعيداً عنها وأغار على تلك المناطق.راجع: أبو شامة: الروضتين، جـ٤، ص٤٢٤.

(٣) انظر في ذلك:ابن شداد: النوادر، ص٢٤؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٧، ص١٤٧-١٤٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٣٤٨؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٨٢؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٣٦٣-٣٦٤، ٣٦٧؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٣٩-٤٠؛ ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٩٤-٩٥، الباهر، ص١٣٢،

نفسه من التحركات الكثيرة التي كان يرافق فيها نورالدين، وأنه رغب في اتخاذ مصر ملكاً له، يكون نائباً فيها عن نورالدين، وأنه بعث في شأن ذلك إلى الخلافة العباسية يطمعها في ثراء مصر، وفي القضاء على المذهب الشيعي بها، حتى يضع نورالدين أمام الأمر الواقع، بحيث لا يستطيع التراجع، وكان مما يُخيف نورالدين عدم اطمئنانه على سير جيشه إلى مصر؛ خوفاً عليه من الصليبيين ومن دهاء شاور،كما كان مما يقلقه أكثر أن يحدث تحالف بين الصليبيين والبيزنطيين[١].

والواقع أن ما حدث لم يخرج عما سبق، بيد أن الاستيلاء على مصر التي كانت فيما سبق مجرد فكرة مثالية، صارت اليوم واقعية بما ترتب على الحملة السابقة من التعرف على مصر من داخلها ورؤية خيراتها والوقوف على حالة الدفاع عنها، وغيرها مما يكشف بعض مواطن الضعف الذي تعاني منه، ولم يكن ذلك غائباً عن كلا المعسكرين العموري والنوري، وإذا كان الصليبيون لا يزالون يعانون من جراء هزائم حارم وبانياس والخروج خالين الوفاض من مصر منذ ثلاثة أعوام فإن هذه الأحوال السيئة ذاتها هي التي تفترض ألا يفرط عموري في ضياع مصر منه، سواء بالطمع في امتلاكها أو بالحرص على عدم استيلاء غيره عليها، لقد استنفذت موارد بلاد الشام في الاقتصاد والقوى البشرية، بينما تظل مصر - برغم ما تعانيه من ضعف في كافة النواحي - دولة غنية بمواردها، وإذا كانت مكانة نورالدين قد ارتفعت بعد هزيمته للصليبيين في حارم فإن عموري ما زال يأمل في عقد تحالف مع الإمبراطور مانويل يُمكّنه من التحرك صوب مصر وهو مطمئن إلى مؤخرته في شمال بلاد الشام[٢].

وبناء على هذا الوضع قرر المجلس الذي عقده عموري في نابلس التوجه إلى

---

(١) راجع: علية عبد السميع الجنزوري: هجمات الروم البحرية على شواطيء مصر الإسلامية في العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م، ص١٢١-١٢٢؛ حسن حبشي: نورالدين والصليبيون، القاهرة، ١٩٤٨م، ص١٠٩؛ ستانلي لين بول: صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس، ط١، القاهرة، ١٩٩٥، ص٩٢-٩٣. وأيضاً:

Schlumberger, *Campagnes*, p.104, note.2-4.

(2) Lilie, *Byzantium*, pp.310-315.

مصر؛ للتصدي لجيش شيركوه قبل استيلائه عليها، وكان مما اتبعه الملك لتمويل حملته فرضه ضريبة العشر على الأملاك العينية على كل فرد في المملكة، وأمر بحشد طاقة المملكة العسكرية وبالتجمع في عسقلان، وقد حاول الملك - في عجالة - عرقلة شيركوه قبل دخوله مصر بيد أنه فشل، ولذا فقد عجل عموري بإتمام استعداد الاحتشاد بحيث وصل إلى مصر في الوقت الذي وصل فيه شيركوه إليها، ويعود سبب تأخر شيركوه في الوصول إلى مصر إلى اتخاذه مساراً إلى أقصى الشرق من أملاك الفرنجة، وأنه لكي يتفادى معارضة عموري له اضطر إلى الدخول في عمق الصحراء إلى الشرق، وقد ترتب على ذلك تعرضه لعاصفة رملية شديدة، كانت سبباً في بطء حركته وقضت على جماله وجانب كبير من مئونته ورجاله[1].

ويُشير وليم الصوري - المؤرخ الذي انفرد بإيراد تفاصيل أكبر لهذه الحملة بما في ذلك معركة البابين وحصار الإسكندرية - إلى اندهاش شاور من وصول الملك عموري على هذه الصورة دون استدعاء، ولم يصدق شاور السبب الذي ذكره عموري لمجيئه إلى مصر إلا بإرساله بمن يتأكد له من وجود شيركوه في مصر، هذا على الرغم من إقرار المقريزي لاستعداد شاور للتصدي لشيركوه على خلاف ما قال وليم الصوري، بمعنى أنه كان يعلم بتحرك شيركوه إلى مصر، وذلك ما جعل الأخير يسلك الطريق إلى أطفيح وليس إلى القاهرة[2]، ومن جهة أخرى يؤكد وليم الصوري مراراً وتكراراً سواء عن عمد أو عن غير عمد، على أن ثمة ما كان يمنع من تبادل الثقة بين شاور وعموري، وقد سلك عموري مؤخراً سلوكاً ينم عن هذا في محاولته تأكيد الاتفاق الجديد بمقابلة رسله للخليفة والحصول على إقراره الشخصي عليه.

---

(1) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٣٩-٤٠؛ المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٤٧؛ ابن ظافر: أخبار الدول، ص١١٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٣٨٧-٣٨٨؛ البنداري: سنا البرق، ص٢٠؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٢، ص٤٧٩، جـ٧، ص١٤٧-١٤٨؛ ابن شداد: النوادر، ص٢٤؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٨٢؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٣٦٤؛ ابن العبري: تاريخ الزمان،، ص١٧٨.

(2) انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٣٩-٤٠؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٨٢-٢٨٣.

ولكن يتضح من رواية وليم الصوري أن شاور هو الذي أشار إلى فكرة تأكيد الاتفاق الجديد للملك عموري مع الخليفة العاضد[1]، وهي إشارة تستدعي التوقف عندها قليلاً، ذلك أن العاضد لم يكن له ناقة ولا حمل بعير فيما يحدث من حوله، وهو ما سجله وليم الصوري الذي كان غريباً عن البلاد، بيد أنه أدرك أن الخليفة العاضد عاجز عن اتخاذ أي إجراء دون الرجوع إلى شاور، وأما سر إقحام شاور في هذا الاتفاق، فإن الباحث يُرجح أن شاور حاول أن يُحمّل العاضد - خليفة مصر وصاحب السلطة الشرعية بها - مسئولية عقد مثل هذا الاتفاق أمام رعاياه وبحيث لا يكون هو وحده أمام المدفع إذا دعت الضرورة.

ومن ناحية أخرى فإن هذه الخطوة ثُورط الصليبيين في مصر بازدياد طمعهم فيها، وذلك لأن دخول الرسل الفرنج إلى القصر الخلافي كان متعمداً تقريباً، وكان وصف وليم الصوري له أشبه بما يصاغ ويحكى في حكايات ألف ليلة وليلة، وهو وإن كان وصفاً مبالغاً فيه، بيد أن ثراء مصر كان واضحاً لغيره ممن أرخ لهذه الفترة من مؤرخي الفرنج مثل إرنول، الذي وصف بدوره الثراء الفاطمي، ومن ثم فإن جولة سفراء عموري في أروقة القصر الفاطمي لن تزيد الملك عموري إلا طمعاً فيما بها، مما تعمد شاور إظهاره لرسل عموري، وقد أتت خطته الخبيثة أُكُلها[2].

كان الاتفاق ينص على حصول الملك على أربعمائة ألف دينار، يدفع شاور نصفها مقدماً ويدفع النصف الآخر على أوقات محددة، وذلك في مقابل تعهد عموري "بخط يده ويصدق من غير غش ولا سوء نية على أنه لن يغادر أرض مصر حتى يتم

---

(1) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٤٩-٥٠.

(2) Richard of Holy Trinity, *Itinerary of Richard I*, (Cambridge, 2000), pp.7-8; Ernoul, *Chronique*, pp.15-20.See also: Benjamin of Tudela, *The Itinerary*, pp.75-77.

وعن وصف وليم الصوري للبلاط الفاطمي انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٤٦-٤٨.وكذلك: فايز نجيب اسكندر: "الصليبيون والفاطميون والزنكيون في معركة البابين"، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، كلية الآداب- جامعة المنيا، العدد٤٨، أبريل ٢٠٠٣، ص٨٨-٩٩. وأيضاً:
Schlumberger, *Campagnes*, pp.116-124.

القضاء على شيركوه بجميع عسكره أو يخرجوا من البلاد عن بكرة أبيهم[١]"، وبإبرام الاتفاق على هذا النحو تحرك الطرفان لمواجهة شيركوه، الذي استطاع في ذلك الوقت عبور نهر النيل إلى الجيزة[٢]، وبقي فيها في مقابل القاهرة، وفي الحال تحرك عموري وشاور في محاولات عسكرية وتتبعية خلفه للقضاء عليه على طول الصعيد، وكانت طبيعة أرض مصر في الوادي في مصر الوسطى مما سهل من مهمة التتبع، وكان شيركوه متعمداً سحب عموري وشاور إلى صعيد مصر لإبعادهما عن مراكز إمدادهما في القاهرة وبيت المقدس، وحينها نجح كل من عموري وشاور في تضيق الخناق على شيركوه في منطقة تعرف بالبابين هي التي حدثت بها المعركة المشهورة التي تحمل الاسم نفسه[٣].

والواقع أن مطاردة عموري وشاور لشيركوه في صعيد مصر لم تكن بالأمر الهين؛ إذ تخلل عملية المطاردة العديد من الأحداث المعقدة، ثم كانت معركة البابين هي الأخرى التي ألقت المصادر المختلفة في عرضها مزيداً من التداخلات والتناقضات الأمر الذي لا ييسر من محاولة معالجتها، من حيث عدد الجيشين وموقع المعركة وتفاصيل تخص أحداثها وخطتها وتاريخها ونتائجها. فعن عدد الجيشين الذين التقيا في المعركة فقد أوقعنا وليم الصوري في مأزق شديد وذلك حينما قدّر عدد الجيش الصليبي بثلاثمائة وأربعة وسبعين فارساً وعدد من التركبولية[٤] والمصريين

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٤٦.

(٢) الجيزة الناحية والجانب وجمعها جيز، والجيز جانب الوادي وقد يقال فيه الجيزة، والجيزة اسم لقرية جميلة البنيان على النيل من جانبه الغربي تجاه مدينة الفسطاط.راجع: المقريزي: الخطط، جـ١، ص٥٧٥.

(٣) عن تفاصيل العمليات العسكرية التي أعقبت دخول شيركوه الجيزة وحتى أحداث معركة البابين انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٥٤-٦١؛ فايز نجيب إسكندر: الصليبيون والفاطميون والزنكيون في معركة البابين، ص٩٠-١٠٧.وأيضاً:

Schlumberger, *Campagnes*, pp.125-148; Rohricht, *Amalrich I*, pp.446-448.

(٤) يمثل التركبولية طبقة الأجناد السرجندية وفيرة العدد، وهم في الأصل رجالة كاملة العدة ولهم أصل إفرنجي، وينزلون بإقطاعات سادتهم، وقد تزوجوا من المسيحيات الوطنيات، ثم أخذوا - منذ عام ١١٥٠- يؤلفون طبقة البولانية Poulains التي أخذت تندمج في المجتمع المسيحي، وجرى

وهم في نظره كانوا عبئاً ثقيلاً على جيش عموري، وقد وافقه في ذلك جاك دي فيتري حينما أقر أن جيش عموري كان حوالي ثلاثمائة وسبعين فارساً.

وعلى الجانب الآخر قدّر وليم الصوري جيش شيركوه ما بين عشرين وواحداً وعشرين ألفاً؛ اثنا عشر ألف من الشوام، منهم تسعة آلاف ممن يلبسون الدروع على صدورهم والمغافر على رءوسهم وخيولهم مدرعة أيضاً، واقتصر تسليح الثلاثة آلاف الأخرى على الأقواس والسهام، وغير هؤلاء عشرة أو إحدى عشر ألف من البدو، ممن يحاربون بالرماح[1]، فإذا انتقل الباحث إلى جيش شيركوه من خلال المصادر الإسلامية اتضح ما لدى وليم الصوري من مبالغة كبيرة؛ ذلك أن معظم المصادر الإسلامية قدّرت جيش شيركوه بألفي فارس من الخيالة السريعة الوافرة، أما تقديرها لجيش عموري وشاور فيُشير بعضها إلى أنه كان أكثر من عشرة آلاف ممن اشترك في معركة البابين، ناهيك عمن ترك من حامية لحراسة القاهرة، بينما قدرتها مصادر أخرى بعشرات الألوف ممن شاركوا في معركة البابين، ويشير غيرها إلى أن عموري تحرك هو وشاور بجميع جيوشهما لمواجهة شيركوه في البابين[2].

وبنظرة دقيقة إلى الأحداث التي سبقت المعركة والأحداث التي تلتها فسوف يتضح أن المبالغة كانت واضحة في وصف كلا الجيشين، بحيث آل كل فريق من المصادر على نفسه أن يظهر بمظهر الضعف أمام خصمه الذي وصفه بالقوة، بحيث يبرر لنفسه صعوبة موقفه، وقد أخذ وليم الصوري النصيب الأكبر من المبالغات،

تجنيدهم محلياً وتشبهوا بالخيالة البيزنطية الخفيفة في السلاح والتدريب، ويشير اسم التركبولية إلى نسبتهم إلى المسيحيين المحليين ممن تحول منهم عن ديانته، وقد تشير إلى من تحلل منهم عن قيود طبقته، ويرجح أنهم يتحدثون لغة أمهاتهم.راجع: رنسمان: تاريخ الحروب، جـ٢، ص٤٦٩.

(1) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٦٢؛ انظر أيضاً: جاك دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ص١٤٦.

(2) انظر: ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٩٥، الباهر، ص١٣٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٣٤٩؛ ابن ظافر: أخبار الدول، ص١١٥؛ ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٣٢٢؛ ابن العبري: تاريخ الزمان،، ص١٧٩؛ البنداري: سنا البرق، ص٢٠؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٣٦٥، ٣٧٠، ٤٢٥.

وذلك عن عمد لإظهار الملك عموري هو وباروناته وفرسانه أفضل من حارب في المعركة، وبحيث لم يكن للفاطميين أو التركبولية أي دور فيها، بل ربما كان هؤلاء - من وجهة نظر وليم الصوري - عبئاً على عموري أكثر مما له، بل إن وصف وليم لأحداث تحركات شيركوه ومطاردة عموري وشاور له في الصعيد تدل على تناقص جيشه على نحو ملحوظ، حيث تعرض لعاصفة رملية في صحراء سيناء أجهزت على عدد كبير من رجاله ومئونته وجماله، وإضافة إلى ذلك فقد شيركوه - في أحداث استرداد عموري وشاور جزيرة المحلة منه - ما يقارب خمسمائة من فرسانه على حد وصف وليم الصوري[١]، علاوة على السهولة التي عبر بها جيش شيركوه للنيل بعكس حال جيش عموري وشاور في عبورهما له، بما ينم عن قلة عدد الأول وخفته بعكس الحال مع المعسكر الثاني.

كما وصلت الملك عموري أمداداً من الفرسان الذين جاءوا قبل المعركة بقليل[٢]، على حين كان شيركوه يفكر هو ورجاله في العودة إلى بلاد الشام بعد فشل شيركوه في التصالح مع شاور وتأليبه على عموري والاتفاق سوياً للقضاء عليه[٣]، ومن جهة أخرى تشير الصورة التي انسحب بها جيش عموري عقب المعركة إلى كثرة عدد جيشه، ربما بصورة منعت شيركوه من التعرض له برغم انسحابه من بين تلين يسيطر عليهما شيركوه، كما استغرق انسحاب جيشه من أرض المعركة ما يقارب ثلاثة أيام وهي مدة طويلة لمثل هذا العدد الصغير[٤]، أما الأمر الأكثر أهمية، فهو عدم مهاجمة شيركوه للقاهرة عقب انسحابه من البابين، ويُعلّق ابن تغري بردي على ذلك بأنه كان بإمكان شيركوه امتلاكها إذا ما تحرك إليها ولكنه انسحب إلى

---

(١) عن تفاصيل الأحداث التي جرت بين عموري وشيركوه في جزيرة المحلة التي يتضح من وصف وليم الصوري لها أنها تقترب من المنطقة التي تتفرع عندها الدلتا وكانت سبباً في نشأة الدلتا ذاتها انظر:وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٥٤-٥٨.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٤٤-٤٥، ٥٨، ٦١.

(٣) أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٢٥؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٨٣.

(٤) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٦٥-٦٦.

الإسكندرية[1]، وكان تبرير هذا التصرف أنه لم يكن معه ما يكفي للاستيلاء على مدينة حصينة مثل القاهرة، سبق وجدّ في حصارها في الحملة السابقة بيد أنه عجز عن الاستيلاء عليها، فهذا وغيره يشير إلى أن جيش عموري كان يتفوق بشكل ما على جيش شيركوه من حيث الحجم وأن ما ذكره وليم الصوري عن ذلك لم يكن الحقيقة كاملة.

ويصف وليم الصوري أرض المعركة بأنها المنطقة الفاصلة بين الصحراء والأرض الخصبة، وتسمى بالبابين، وهي منطقة تتسم بكثرة رمالها وبكثرة الحفر بها وبانتشار التلال فيها، وعلى أية حال فإنها تبعد عن جنوب المنيا بحوالي عشرة أميال[2]، وقد حرص شيركوه على تعويض النقص في عدد جيشه باستخدام التكتيك العسكري الذي استخدمه نورالدين في معركة حارم التي حدثت في بلاد الشام منذ قليل، وهي خطة شائعة في حروب الأتراك، وإن لم ينتبه إليها الملك عموري ذاته، بل لم تتفهم بعض المصادر الإسلامية - وكذا المصادر الغربية - طبيعة هذا الأسلوب الحربي في بعض أجزاء وصفها لأحداث المعركة.

إذ كان من ضمن خطة شيركوه أن يسيطر على المرتفعات المحيطة بأرض المعركة ولذا فقد قسم جيشه إلى قلب وميمنة وميسرة، وأصدر أوامره إلى القلب بالتظاهر بالفرار إذا هاجمه الفرنجة، فإذا عاد الجيش الفرنجي من المطاردة وجد رجالته بين قتيل وأسير، هذا في الوقت الذي يرتد فيه قلب جيش شيركوه المتظاهر بالفرار بحيث يوضع الفرسان الصليبيين بين فكي كماشة، أي بين ميمنة جيش شيركوه وميسرته من ناحية وبين قلب جيشه المرتد خلف فرسان الفرنج من ناحية أخرى، وذلك ما حدث تقريباً، أما الإشكالية التي تبرز في معالجة بعض المصادر فإنما في رؤية بعض تلك المصادر في انسحاب قلب شيركوه على أنه هزيمة، على حين

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٣٤٩.

(2) تقع البابين على مسافة عشرة أميال إلى الجنوب من المنيا، وحوالي ثلاثمائة كيلو متر جنوب القاهرة.انظر:
وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٦٣.

أشارت مصادر أخرى إلى تعرض شيركوه للهزيمة في أول المعركة لتقسيمه جيشه إلى قسمين، أحدهما معه والآخر مع صلاح الدين، أو الاختلاف في إبراز تشكيلات الجيشين ووضع القيادات بهما وتفاصيل أخرى في الخطة المقترحة، وأشارت أخرى إلى عدم حسم المعركة في يوم واحد بل امتدت أحداثها إلى أكثر من يوم، أما الأمر الأكثر غموضاً فهو إشارة وليم الصوري إلى أن المعركة لم تحسم لأي من الطرفين سواء لعموري أم لشيركوه، وإنما دارت حروب متفرقة هنا وهناك، ولم يعلم أحد لمن كانت الغلبة، هذا على الرغم من إجماع المصادر الإسلامية على أن الغلبة كانت لجيش شيركوه[١].

أما عن تاريخ المعركة فقد دارت عنه أقوال كثيرة، ربما كان منبعها أن ابن الأثير حددها مرة ٢٥من جمادى الأولى في التاريخ الباهر، وحددها مرة أخرى ٢٨من جمادى الآخرة في تاريخه الكامل[٢]، ومن هنا نبع التردد والاختلاف بين من تبعه ممن نقل عنه، وقد تعرض لهذا الأمر كثير من المؤرخين المحدثين[٣]، ويتفق الباحث مع

---

(١) عن اختلاف المصادر في الإشكاليات السالفة انظر:جاك دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ص١٤٦؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٦٣-٦٦؛ ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٩٥، الباهر، ص١٣٢-١٣٣؛ ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٣٢٣-٣٣٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٣٤٨-٣٤٩؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، جـ٧، ص٢٨؛ البنداري: سنا البرق، ص٢٠؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٧٩؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٨٣-٢٨٤؛ انظر أيضاً التحليل القّيم لهذه الإشكاليات لدى:
فايز نجيب إسكندر: الصليبيون والفاطميون والزنكيون في معركة البابين، ص٩٣-١٠٤.انظر أيضاً:
Schlumberger, *Campagnes*, pp.138 -148.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٩٥، الباهر، ص١٣٢.

(٣) وعن الذين تعرضوا لتاريخ معركة البابين بالمناقشة انظر:
Omran, "King Amalric and the Siege of Alexandria 1167", in *Crusade and Settlement*, Papers read at the first Conference of the Society for the Study of the Crusades and the Latin East and presented to R.C. Smail, (ed.) Peter W.Edbury, (University College Cardiff Press, 1985), p.191.
وأيضاً: فايز نجيب إسكندر: الصليبيون والفاطميون والزنكيون في معركة البابين، ص٩٥.راجع أيضاً:

من رجح حدوثها في ١٩من مارس ١١٦٧م/٢٥من جمادى الأولى ٥٦٢هـ، وليس في ١٩من أبريل ١١٦٧م/٢٥ من جمادى الآخرة، وذلك بناء على التحديد غير المباشر الذي ذكره وليم الصوري في ذكره لموعد المجلس الذي سبق المعركة بيوم وهو يوم الأحد الذي تنشد فيه ترنيمة "افرحي يا أورشليم" Laetare Hierusalem Was Sun " وهو موافق ليوم ١٨من مارس/٢٤من جمادى الأولى وليس ١٨من أبريل/٢٤من جمادى الآخرة[١].

ويؤيد ذلك أيضاً أن وصول شيركوه إلى أطفيح كان في أواخر ربيع الأول وأوائل ربيع الآخر٥٦٢هـ أي خلال يناير ١١٦٧م، وقد أجمعت المصادر الإسلامية على بقاء شيركوه في الجيزة نيفاً وخمسين يوماً وهي المدة التي حدثت خلالها العمليات الحربية التي قام بها شاور وعموري للعبور إلى جانب النهر الآخر خلال أحداث المطاردة في صعيد مصر، وقد قدر وليم الصوري هذه المدة بأنها تزيد عن شهر أو أكثر، ثم كانت المطاردة عدة أيام أخر، فإذا حسبت هذه الأرقام التقريبية سيتضح أنها أقرب إلى ٢٥جمادى الأولى بكثير عن جمادى الآخرة؛ لأن في الثانية تأخر شهراً كاملاً لم يرد ذكره لدى أحد ممن تعرض لهذه الأحداث، علاوة على تأكيد رنسمان عن سيرة حياة القديس برنارد st.Bernardi لحدوث معركة البابين في ١٩من مارس/٢٥من جمادى الأولى[٢]، وعليه رجح الباحث هذا التاريخ.

وعند التعرض لنتائج المعركة الواقعية فإن وقعها كان شديداً على الجيش الصليبي بصفة خاصة، ذلك أن الملك عموري كاد أن يُدرك ويُؤسر خلال المعركة، وأُسر من فرسانه حوالي سبعين فارساً وربما مائة على ما ذكر وليم الصوري تقريباً من البارونات كان من بينهم هيج صاحب قيسارية، أما شاور فقد قُتل من رجاله الكثيرون، بل ربما كان رجاله وقوداً لمعركة عموري ودروعاً اتخذها الأخير للتمكن

Rohricht, *Amalrich I*, pp.447-448; Schlumberger, *Campagnes*, pp.136, 142-143.

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٦١.

(٢) انظر:رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٦٠٥).

من شيركوه، أما جيش شيركوه فقد أشار وليم الصوري إلى فقدانه لألف وخمسمائة من رجاله وهو مما يُضاف إلى مبالغات وليم الصوري بشأن الأرقام الإسلامية لديه[1]، ولكن التعليق الأخير على هذه المعركة يستوجب إعمال الذهن فيما حدث بالفعل وليس افتراض ما يمكن حدوثه..فإذا كان عموري وشاور فشلا في هزيمة شيركوه في البابين، فلاريب أنهما لم يحسما الأمر حتى تلك اللحظة، بل إنهما عجزا بالفعل عن القضاء على شيركوه، وقد ساعدتهم ظروف صعيد مصر على دفعه إلى معركة كاد يُقضى عليه هو وجيشه فيها تماماً، ولكن كيف سيكون الحال إذا ما تمكن من الانتصار عليهما والإفلات منهما إلى أرض أرحب، بعيداً عن ضيق الخناق في الصعيد، باتجاه شيركوه على رأس جيشه إلى الإسكندرية؟

لقد أدى تحرك شيركوه إلى الإسكندرية إلى تعقيد مهمة عموري وشاور، وهي إخراج الأول من مصر وبخاصة بعد ما لقياه من جهد في أثناء مطاردته في صعيد مصر على مدار شهرين تقريباً، ولم يقم شيركوه بمهاجمة مدينة القاهرة على الرغم من أنها قلب مصر ومركز السلطة فيها، وكان لشيركوه فيها خبرات حربية سابقة، ولكنه قرر التوجه إلى الإسكندرية هذا على الرغم من أن الاستيلاء على القاهرة غاية ما يتمناه أياً من شيركوه أو عموري، ولكن الواضح أن عموري كان خائفاً من تعرض

---

(1) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٦٥-٦٦. يعلق وليم الصوري على أن التركبولية ورجال شاور لم يكن لهم أي قيمة في المعركة، بل كانوا في أفضل الأحوال عبئاً على الملك. انظر عن معركة البابين أيضاً: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٣٤٩؛ ابن ظافر: أخبار الدول، ص١١٥؛ البنداري: سنا البرق، ص٢٠؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٧٩؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٨٤؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٣٦٥، ٣٧٠، ٤٢٥. وعن هيج صاحب قيسارية انظر:

La Monte, "The Lords of Caesarea in the period of the Crusades", *Speculum*, 1947, pp.149-151.

وعن وجود هيج في وثائق المملكة في عصر عموري بوصفه شاهد عليها انظر:

Rohricht, *Regesta*, no.397, 400, 412, 413, 416, 422, 449; Muller, *Documenti*, p.11, no.9, p14, no.11; Roziere, *Cartulaire*, pp.262-268, no.144; Maragone, *Annales Pisani*, (ed.), M.L. Gentils, *RIS*, (Bologna, 1936), I, pp.309-310; Archives de L'Orient Latin, II B, p.140, no. 22.

القاهرة لأمر كهذا وإلا لما صار لوجوده أي نفع على الإطلاق، وعليه فإنه شدّدَّ الحراسة عليها، ليس بفرق مصرية فحسب، ربما مخافة ميلها مع قوى شيركوه المسلمة، وإنما بفرق صليبية على رأسها هيج دابلن أحد كبار بارونات المملكة.

ومن جهة أخرى أوكل عموري إلى بعض رجاله منذ البداية حراسة الجسر الذي يربط بين الجيزة والقاهرة، ولما لم يكن باستطاعة شيركوه محاصرة القاهرة دون عبور هذا الجسر فإن مهمة الاستيلاء عليها أو حصارها على الأقل كانت بالأمر العسير[١]، أما الأمر الذي لا يستطيع الباحث البت فيه فهو الوقت الذي تحرك فيه شيركوه إلى الشمال، فلم تقدم المصادر ما يفيد ذلك، سواء أكان عموري هو الأسبق أم شيركوه، إلا إذا افترض الباحث أن جيش شيركوه كان صغيراً فاستطاع جمعه بسهولة بعد معركة البابين وأسرع به نحو الشمال، بينما ظل عموري يجمع في جيشه وجيش شاور ما يقارب ثلاثة أيام وتحرك به في اليوم الرابع[٢]، ولذا فقد كان شيركوه أسبق في التحرك ومن ثم فلم يكن للملك عموري وشاور وجود في القاهرة خلال مرور شيركوه إلى الغرب منها في توجهه إلى الإسكندرية[٣].

وعليه فإنه في ظل هذه الظروف لا يقبل الباحث قول ابن تغري بردي بشأن استفساره عن عدم توجه شيركوه إلى القاهرة وأنه لو فعل ذلك لاستطاع امتلاكها، وبخاصة أن أهل مصر ذاتهم كما تشير بعض المصادر المعاصرة، كانوا آنذاك يكرهون الأتراك ويودون لو شربوا دمائهم[٤]، وبالتالي فإنه لم يكن له إلى القاهرة سبيلاً، مما دفع شيركوه إلى التحرك نحو الإسكندرية سالكاً طريق الفيوم إلى البحيرة وهناك أخذ معه ما يكفيه من المئونة من الغلال والمواشي ومنها رأساً إلى

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٥٦، ٥٨، ٦٥-٦٦.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٦٥.

(٣) قارن في ذلك ما ورد لدى حسن حبشي:نورالدين،، ص١١٥، ٢٠٥، حيث يعطي دوراً كبيراً لوجود عموري في القاهرة وأنباء عن وصول قوات جديدة من المملكة؛ مما رفع من روح الفرنج المعنوية وعليه فقد قرر شيركوه الانسحاب إلى الصعيد.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٣٤٩.انظر أيضاً: ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٧٨، أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ٣٦٤-٣٦٥.

الإسكندرية[1].

ولم يكن توجه شيركوه إلى الإسكندرية عشوائياً وإنما كان تصرفاً مدروساً، بل وقبل أن تُعرف نتيجة معركة البابين؛ إذ قدم إلى شيركوه قبيل نشوب معركة البابين بعض نواب الإسكندرية، وعلى رأسهم الشريف الإدريسي الجغرافي الحلبي المعروف، نيابة عن ابن مصال أحد أحفاد الوزير الأسبق ابن مصال، ثم الرشيد بن الزبير متولي ديوانها وغيرهم من وجوه الإسكندرية الذين عرضوا المساعدة على شيركوه بالمال والرجال، بل وأتوه ببعضها خلال وجوده في الصعيد قبل البابين[2]، أما ما دفع أهالي الإسكندرية إلى ذلك فله أكثر من داعي، أولها ربما بسبب طموح بعض هؤلاء في الحصول على الوزارة بمساعدة شيركوه، ومن هؤلاء ابن مصال سالف الإشارة، وثانيها لأن المساعدة التي يقدمها أهل الإسكندرية لشيركوه فإنها ضد شاور الذي استعان بالفرنج لمحاربة المسلمين وبذا كان يضيع مصادر المسلمين المالية على غير المسلمين من الفرنج، بما أنفقه عليهم من هدايا وضرائب سنوية، وثالثها لأن رعايا الإسكندرية كانوا مثل شيركوه سنّة بينما كان شاور شيعياً، والأكثر أهمية أنهم على خلاف أهل القاهرة يرحبون بمساعدة شيركوه[3].

ومن الناحية الواقعية لم يكن بامكان شيركوه أن يرفض عرضاً كهذا، بل كان عرضاً مغرياً، يُمكِّنَه من الاستقلال بمدينة مصرية كبيرة مثل الإسكندرية، بما لها من حاضرها التجاري على مستوى العالم، إضافة إلى قوة المدينة أمام أي حصار طويل المدى، ثم إنها تتيح له إمكانية منع وصول أية إمدادات إلى الملك عموري عن

([1]) البنداري: سنا البرق، ص٢٠-٢١؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٨٤؛ المقريزي: التاريخ المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوى، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١م، جـ١، ص٥٣٤؛ ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٩٥-٩٦؛ الباهر، ص١٣٣؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٦٧.

([2]) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٣٧٣؛ المقريزي: المقفى، جـ١، ص٥٣٤؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٢٦ ٤٢٧ ٣٦٦.(رواية ابن أبي طي).انظر أيضاً:

Rohricht, *Amalrich I*, pp.447-448.

([3]) Omran, *King Amalric*, p.192.

طريقها، سواء من المملكة أم من الغرب الأوربي وبيزنطة، وقد صدق رعايا الإسكندرية في وعودهم، حينما أمدوه بالمال اللازم وبالأسلحة[1].

لم يكن أمام عموري وشاور سوى التحرك وبدء استعدادات جديدة لمواجهته، ويقدم وليم الصوري تفاصيل أكثر دقة عن غيره وبخاصة في أثناء هذه الفترة التي سبقت ترك شيركوه للإسكندرية، ويتضح من واقع رواية وليم الصوري أن الملك عموري لم يُطبق حصاره على المدينة مباشرة وبصورة أقرب وهي إشارة محيرة؛ إذ أقام الملك معسكره بين تروجة[2]ودمنهور، على بعد ثمانية أميال تقريباً من الإسكندرية، حقا أن عموري أحكم إغلاقه للمنافذ البرية والنيلية المؤدية إلى المدينة ومنع عنها كافة الإمدادات وفرض رقابة صارمة على الداخل والخارج إليها، ولكنه اتخذ موقعاً بعيداً في حصاره لشيركوه[3]، ويُرجّح محمود عمران أن الملك عموري لم يكن متأكداً من مهاجمة شيركوه للإسكندرية، وظل في ذلك الموقع منتظراً تقارير كشافته عن موقف جيش شيركوه وموضعه.

كما يُرجح عمران خوف عموري من انخفاض منسوب المياه في قناة الإسكندرية بما لا يسمح بمرور سفن الملك بها؛ إذ يظل مستوى الأمطار منتظماً حتى فيضان النيل في أغسطس، وبما أن معركة البابين حدثت في ١٩من مارس، فلاريب أن القناة كانت تقترب آنذاك من أقل نقطة انخفاض لها، ولذا فربما خشي عموري من

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٣٧٣؛ المقريزي: المقفى، جـ١، ص٥٣٤؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٢٦.وقد أشار فيلكس فابري عرضاً إلى عملية الحصار التي فرضها عموري على الإسكندرية، وأنه حصل من شاور على ألف قطعة من الذهب لطرد المسلمين الشاميين منها وإعادة الإسكندرية إليه.انظر:

Fabri, *The book of Wandering*, p.329.

كما أشار بنيامين التطيلي إلى ما زخرت به الإسكندرية من كافة أنواع المتاجر وبتردد أمم كثيرة عليها من أجل التجارة.انظر:

Benjamin of Tudela, *The Itinerary*, p.76.

(٢) تروجة بالفتح ثم بالضم وسكون الواو والجيم هي قرية في مصر من كورة البحيرة من أعمال الإسكندرية. انظر:ياقوت الحموي: معجم البلدان،جـ٢، ص٢٧.

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٦٦.

جنوح سفنه، أما الفرضية التي ختم بها محمود عمران تفسيره فهي احتمال اعتقاد عموري أنه كان أقرب إلى الإسكندرية عن الحقيقة التي ساقها وليم الصوري، بأن عموري أقام معسكره على بعد ثمانية أميال من الإسكندرية[1]، ومما يدفع الباحث إلى تأييد الفرضية الأخيرة أن عملية الحصار كانت محكمة بشدة، بحيث أتت أكلها وبدأ شيركوه يشعر في غضون شهر بقلة الإمدادات التي تصله عن طريق النيل من الصعيد، وبازدياد تضيق عموري على المدينة ذاتها، ولأجل ذلك وغيره قرر شيركوه ترك المدينة في قيادة صلاح الدين وخرج هو من الإسكندرية تحت جنح الظلام إلى الصعيد مرة أخرى.

ويصف وليم الصوري قرار شيركوه بأنه هروب، والواقع أنه لم يكن كذلك وإنما محاولة ذكية لم يفهم مغزاها سوى قلة آنذاك، ولاريب أن هذه الحركة لم تغب عن بال عموري، ذلك أنه تتبع جيش شيركوه حتى القاهرة، ولكنه توقف عند ذلك الحد، أما الحكمة من رحيل شيركوه إلى الصعيد، فإنما خوفه من حصار جيشه بالكامل وفيه المريض والجريح[2]، ومن ثم لا يستطيع أخذه كله أو إبقائه كله، إضافة إلى توافر فرصة للخروج من المدينة في ضوء وجود عموري على مسافة منها، ومن ناحية أخرى سيكون على عموري مطاردة جيشين والقتال على جبهتين في آن واحد، لعل أخطرها مطاردة شيركوه مرة أخرى في الريف المفتوح في صعيد مصر، أما الأسهل بالنسبة للملك عموري فإنما حصار الإسكندرية[3].

([1]) Omran, *King Amalric*, p.192.See also: Rohricht, *Amalrich I*, pp.449-451.

([2]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٦٧. انظر أيضاً: ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٩٥-٩٦، الباهر، ص١٣٣-١٣٤؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٨٤؛ البنداري: سنا البرق، ص٢٠-٢١. وأيضاً:

Omran, *King Amalric*, pp.192-193.

([3]) Omran, *King Amalric*, pp.192-193.

ويشير رنسمان إلى أن شاور نصح الملك عموري بعدم مطاردة شيركوه في الصعيد؛ لأن شيركوه لم يرد سوى نهبه، أما استعادة الإسكندرية فإنها مهمة لهما سوياً أكثر من مدن الصعيد.راجع: رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٦٠٦.

وأما السبب المباشر الذي جعل عموري يقرر العودة إلى الإسكندرية والعدول عن مطاردة شيركوه فيُورد وليم الصوري ما يفيد بوقوف الملك عموري على الضائقة التي تمر بها الإسكندرية، وبأنه سوف يتلقى مساعدة بعض أشرافها من الداخل في سبيل استيلائه عليها[١]، هذا من الناحية الظاهرية، ولكن الأكثر عمقاً هو إدراك كل من عموري وشاور لحقيقة ضعف المدينة بالفعل ومن ثم بإمكانهما إذا ما شددا الحصار عليها أن يُرغِما من بها على التسليم وعندها سوف يأتيهم شيركوه بنفسه إليهم.

وبناء على ما سبق عاد عموري إلى الإسكندرية وفرض عليها الحصار ولكنه ضيقه هذه المرة، وساعده على ذلك أن المدينة كانت محاصرة من قبل ولم تصلها أية إمدادات بفضل إحكام سيطرته البرية والنيلية عليها، كما استخدم عموري آلات الحرب الثقيلة كأبراج الحصار الضخمة في مهاجمتها، علاوة على وصول نجدات بحرية من المملكة، وصلت مُسرعة على أمل مساعدة عموري في الاستيلاء على هذا الميناء المهم[٢]، وكان للبيازنة دور كبير في عملية الحصار، بحيث يقرر روهرشت Rohricht أنهم كانوا يستحقون فيما بعد الحصول على الامتيازات الكثيرة التي منحهم الملك إياها[٣]، وترتب على جهود الملك عموري الجادة في عملية الحصار أن ضاق الخناق على صلاح الدين، وبينما يقر وليم الصوري أن الأهالي ضجروا من طول الحصار، وأنهم فضلوا تسليم المدينة إلى عموري وشاور والتحول إلى رقيق عن الموت هم ونساءهم وصغارهم، تُقرّ المصادر العربية أنهم وقفوا إلى جانب صلاح الدين حتى النهاية، إلى أن أدرك هو ذاته الخطر المحدق، فراسل شيركوه بغرض

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٦٧-٦٨.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٧٠.

(٣) انظر في ذلك:

Rohricht, *Regesta*, no.412,449, 438,467, 541, 571, Maragone, *Annales*, in Mon. Germ. SS., XIX, 257; Muller, *Documenti*, p.15, no.12; Jaffe-Lowenfeld, *Regesta*, no.13375–13042, 15553, 15556-15557.See also: De Vôgue, *Les Eglises de La Terre Sainte*, (Paris, 1860), p.221.

إنجاده بالمال والرجال[1].

كان شيركوه آنذاك في الصعيد في مدينة قوص يجبي الأموال، وحينما وصلته الأنباء السيئة عن حال صلاح الدين في الإسكندرية قرر الرحيل إلى الشمال في ٢٧من يوليو ١١٦٧م/٨ من شوال ٥٦٢هـ، ثم تفيد المصادر بأن شيركوه سلم الإسكندرية للمصريين في ٤من أغسطس/منتصف شوال، وهذا يعني أن المفاوضات لم تستغرق وقتاً، بل لم تأخذ أسبوعاً تقريباً لإنهاء حالة الحرب حول الإسكندرية، مما يستدعي البحث عن أسباب الصلح وشروطه ونتائجه.

يقود وليم الصوري الاتجاه الذي يجعل من عملية الحصار المحكمة سبباً في الضغط على صلاح الدين في الإسكندرية، ثم قدوم شيركوه وفشله في حصار القاهرة، التي أحكم عموري حمايتها من قبل، ولذا فقد قرر شيركوه طلب الصلح عن طريق هيج صاحب قيسارية الذي كان لا يزال في أسره[2]، أما المصادر الإسلامية فمع الرأي الذي يجعل من محاصرة شيركوه للقاهرة وضغطه عليها دور كبير في انسحاب شاور عن الإسكندرية وطلب الصلح من شيركوه، بعد أن رشا بعض رجاله من التركمان لإقناعه بالرحيل عن مصر، وأن الملك عموري تصرف بينهما بوصفه وسيطاً[3]، وهو ما ذكاه محمود عمران[4]، بيد أن الاقتراح الأخير يتغاضى عن عوامل الصراع الحقيقية، وهي وجود كل من عموري وشيركوه في مصر وليس

---

(1) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٦٧-٧٠؛ البنداري: سنا البرق، ص٢١؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٣٦٦.

(2) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٧٣-٧٦.انظر أيضاً:

Richard, *Le Royaume Latin*, p.53; King, *Hospitallers*, p.92; La Monte, *The Lords of Caesarea*, p.150; Baldwin, *The Latin*, p.553.

(3) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٩٦، الباهر، ص١٣٤، البنداري: سنا البرق، ص٢١؛ ابن شداد: النوادر، ص٢٤؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ٣٦٧، ٤٢٧-٤٣٠؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٨٥؛ عمارة اليمني: النكت العصرية، ص٧٩-٨٠، ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٢٧٩؛ ابن ظافر: أخبار الدول، ص١١٥؛ ابن الفرات: تاريخه، جـ١، م٤، ص٥-٦؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، جـ٧، ص٢٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٣٤٩.

(4) Omran, *King Amalric*, p.194.

وجود شاور بها أو صراعه وحده مع شيركوه.

وبنظرة فاحصة إلى تفاصيل الأحداث التي قادت إلى عقد الصلح فإنه بالإمكان الاقتراب من الحقيقة قدر المستطاع؛ إذ يشوب رواية وليم الصوري بشأن تضييق عموري الشديد على الإسكندرية شيء من المبالغة وربما التناقض، مما يتضح من تقديره لحجم الجيشين المتصارعين داخل المدينة وخارجها، فهو يشير بداية إلى أن شيركوه لم يترك مع صلاح الدين سوى ألف فارس وأن المدينة كانت تجارية الطابع ولم يكن لأهلها دراية بالحرب وحمل السلاح، بل إن أغلب من كان مع صلاح الدين إنما فرسان من الجرحى والمرضى، وأما المفارقة فإنما في عودة وليم الصوري فيما قرره مُقدّراً جيش صلاح الدين بخمسة آلاف من المشاة ممن يقدرون على حمل السلاح، هذا على الرغم من عدم وصول صلاح الدين أية مساعدة سواء من نورالدين في دمشق أم من شيركوه.

أما الجيش الصليبي فقدّره وليم بحوالي خمسمائة فارس وأربعة أو خمسة آلاف من المشاة، بينما لم يوضح هنا طبيعة تكوين هذا العدد مثلما فعل في معركة البابين، كما لم يشر إلى حجم مشاركة شاور معه في الحصار، وتتمثل المفارقة في الزيادة التي أشار إليها وليم؛ إذ لم يكن لدى عموري بعد معركة البابين سوى مائتين وأربع وسبعين فارساً تقريباً، بعد فقده لمائة فارس في معركة البابين[1]؛ إذ يصعب فهم ازدياد عدد الفرسان والمشاة بهذه السهولة، لأنه لم يكن باستطاعة المملكة أن تتخلى عن الفارق في القوة الذي بعثت به إلى الملك - على حد إشارة وليم الصوري - على الرغم من أن المملكة لم تستطع تعبئة نصف هذا العدد في أثناء خروج عموري بالحملة، كما اقتضت الظروف الراهنة الحرص من تحركات نورالدين الذي جمع جيوشه وجيوش الموصل وقام خلال يوليو/شوال بمهاجمة بعض أعمال طرابلس[2].

([1]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٦٦-٦٧، ٧١، ٧٧-٧٨.

([2]) ابن شداد: النوادر، ص٢٤؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٣٦٧؛ ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٩٦.

ومن جهة أخرى تشير توابع الصلح إلى أن شاور كان متضايقاً بشدة من أهل الإسكندرية بسبب مساندتهم لصلاح الدين، ربما لما سببه ذلك من مكابدة له في حصارها[١]، علاوة على سرعة استرداد المدينة لنشاطها التجاري على ما ذكر بنيامين التطيلي الذي زارها خلال تلك الفترة[٢]، وهذا يُوحي بأن الأضرار التي لحقت بها من جراء الحصار لم تكن كبيرة، أما الصورة التي رُسمت لشيركوه من جمعه لأعداد كبيرة من الصعيد من العرب واتجاهه بهم لمحاصرة القاهرة[٣]، فإنما مبالغة تستدعي الحذر في التعامل معها، وذلك لأن إتمام حصار خطير للقاهرة يعني وقتاً أطول مما أتيح لشيركوه، لأنه خرج من قوص في٢٧من يوليو/٨ من شوال وسلم الإسكندرية في ٤من أغسطس/منتصف شوال[٤]، بما يعني أنه لم يكن لدى شيركوه وقتاً للقيام بأي حصار للقاهرة في ضوء الأخذ والرد في عملية المفاوضات بين القاهرة والإسكندرية، وبخاصة أنه إذا أتيحت لشيركوه فرصة للاستيلاء على القاهرة لما أضاعها، وإنما يمكن اعتبار تحركه إليها إشارة بالخطر، كان ينبغي أن يحذرها عموري وشاور، وبخاصة أن ميزان القاهرة يفوق في قوته ميزان الإسكندرية، وإذا كان لدى عموري وشاور في الإسكندرية صلاح الدين وألف فارس تركماني فلدى شيركوه في القاهرة أكثر منهم من المصريين والفرنج وفيها أيضاً العاضد الفاطمي، خليفة الدولة الشرعي.

ومن جهة ثالثة تُعلّق بعض المصادر أهمية كبيرة على الدور الذي قام به نورالدين في بلاد الشام للضغط على عموري في مصر، حيث حشد قواه مع قوى أخيه قطب الدين في الموصل وهاجم بعض القلاع في إقليم طرابلس في شوال "فاجتاز على حصن الأكراد، فأغاروا ونهبوا وأسروا وقصدوا عرقة ونزلوا عليها وحصروها

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٧٩؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٨٧-٢٨٨؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٣٦٦-٣٨٣، ٤٢٧-٤٢٨، ٤٢٩-٤٣٠؛ عمارة اليمني: النكت العصرية، ص٨٧-٨٨.

(2) Benjamin of Tudela, *The Itinerary*, p.76.

(٣) أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٣٧٠٠، ٤٢٧-٤٢٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٣٤٩؛ أيبك: الدر المطلوب، جـ٧، ص٢٩.

(٤) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٨٥-٣٨٦؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٣٦٦.

وحصروا جبلة وأخربوها، وتوجهت عساكر المسلمين يميناً وشمالاً تُخرّب البلاد، وفتح العريمة وصافيتا، وعاد إلى حمص، فصام بها شهر رمضان، ثم سار إلى بانياس وقصد قلعة هونين وهي للفرنج أيضاً من قلاعهم المنيعة، فانهزم الفرنج عنها وأحرقوها، فقصدها نورالدين فوصلها من الغد وخرب سورها جميعه، وأراد الدخول إلى بيروت، فتجدد في العسكر خُلف أوجب التفرق فعاد[1]"، ولكن كما توضح الرواية لم تكن هجمات خطيرة مثل هجمات حارم وبانياس من قبل، والأهم من ذلك أن الحملة انتهت باختلاف قادة الجيش، ولذا فلم تكن ثمة خطورة تجعل عموري يتأثر بها ويدخل في مفاوضات الصلح.

على هذا الأساس كان موقف الجانبين متساوياً تقريباً، بل كان الطرفان يعانيان من المشاكل ذاتها في الضجر من طول العمليات القتالية التي بدأت منذ ربيع الآخر وحتى شوال وإن كان موقف عموري أضعف قليلاً؛ لأن شيركوه كان مجرد قائد لأمير جليل من قواد كثيرين، بينما كان عموري ملك المملكة، ولم يكن يصلح غيره للقيادة وتدبير شئون المملكة وبقية الإمارات الصليبية، بيد أن ذلك لم يكن ليدفعه لتقديم تنازلات لشيركوه، وبناء على ذلك كان حل المشكلة كما ألمحت بعض المصادر في يد الداهية شاور الذي كان اضطرابه شديداً حينما علم بمشارفة شيركوه على القاهرة، بحيث ترك حصار الإسكندرية، ربما تركه في مسئولية عموري، وتحرك هو لمواجهة شيركوه بأسلوب دبلوماسي؛ إذ استمال بعض رجاله ليغروا شيركوه على طلب الصلح ولم تكن تلك المرة الأولى التي يخون فيها التركمان ثقة شيركوه فيهم؛ إذ سبق وقاموا بهذا الدور في الحملة السابقة، ولما كان الجيش في حاجة إلى الراحة فإنه ضغط عليه لأجل ذلك[2]، ولاريب أن المال لم يكن يهم شيركوه بقدر سلامة قواته في الإسكندرية، وذلك بما يتوافق أيضاً مع مصالح عموري في ضرورة العودة إلى المملكة، ولكن

([1]) أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٣٧٢-٣٧٥. انظر أيضاً:ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٣٢٤.

([2]) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٩٦، الباهر، ص١٣٤؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٣٧٠، ٤٢٧-٤٢٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٣٤٩.

كيف اقتنع عموري بقبول عملية الصلح؟

لقد كان بوسع الملك أن يفرض الآن في ظل هذه الظروف واقعاً جديداً يختلف عن المسار الذي آلت إليه الحملة السابقة، بأن يخرج من مصر دون أي مميزات، وإنما قرر في دهاء أن يعقد صلحاً تقليدياً مع شيركوه، على غرار الصلح السابق عام ١١٦٤م/٥٥٩هـ، بحيث يُرضي شيركوه ولا يحفزّه على رفضه، وبخاصة أن الأخير فكر في الإيقاع بين عموري وشاور، وذلك باستخلاص يمين من عموري بألا يهاجم مصر مرة أخرى، فاضطر الملك إلى بذله مخافة اجتماع شيركوه وشاور عليه، أما شروط المعاهدة التي عقدها مع شيركوه فتقضي بانسحابهما من مصر معاً، وفك الحصار عن الإسكندرية وإطلاق سراح جنوده منها، وتبادل الأسرى، وعدم معارضته في طريق عودته، وأن يحصل شيركوه على غرامة من شاور جزاء جميع ما أنفقه، ويؤكد قبول شاور لهذه الشروط بالذات أنه كان البادئ في استهلال المفاوضات، على أية حال حصل شيركوه على خمسين ألف دينار أما عموري فحصل على ثلاثين ألف دينار[1].

كان ذلك الاتفاق التقليدي بين عموري وشيركوه، وأما الواقع الجديد الذي فرضه عموري على شاور وربما دون علم شيركوه فهو عقده لاتفاق آخر مع شاور كان تتويجاً لانتصاره الدبلوماسي في مصر، بل ربما كان حصيلة جهده في محاولاته

([1]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٧٦.

أضاف وليم الصوري أن الملك عموري اشترط خضوع الإسكندرية له ورفع علمه عليها، ولم تنوه المصادر الإسلامية بذلك، وإنما أشارت إلى تسليم شيركوه الإسكندرية للمصريين وليس إلى عموري. انظر: البنداري: سنا البرق، ص٢١؛ ابن شداد: النوادر، ص٢٤؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٨٥-٢٨٧؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٣٦٦؛ ابن الوردي: تاريخه، جـ٢، ص١١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٣٤٩.

ويشير ابن تغري بردي إلى أن شاور منح شيركوه مالاً وإقطاعاً في مصر، وليس لذلك سند في غيره بل ويتنافى مع كمّ الحقد الذي كنَّه شيركوه له، بحيث كان يهاجم شاور في كل مناسبة، وقد أدى ذلك إلى قيام شاور مراسلة نور الدين على مال سنوي، مقابل صرفه لشيركوه عن أحاديثه التي يهاجم فيها شاور وتظهر رغبته في العودة إليها والأخذ بثأره من شاور. انظر: ابن الفرات: تاريخه، جـ١، م٤، ص٥-٦؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٨٧.

للاستيلاء على مصر بداية ثم تحييدها بعدئذ، وأما شروطه فتتمثل في أن يُصبح للفرنج شحنة في القاهرة - أي حامية عسكرية - يقيمون بها وتكون بأيديهم أبوابها وأسوارها، بحجة منع نورالدين من إرسال جنوده مرة أخرى إليها، كما قرر شاور للملك عموري مائة ألف دينار سنوياً من دخل مصر، بل تمادى الأمر إلى إبقاء بعض الفرنج ممن أقام في دور القاهرة وبيوتها على وضعه، بحيث عاد مع الملك من عاد وبقي من فضل البقاء، وكان لهؤلاء دور في تحريض الملك فيما بعد على الإتيان إلى مصر وترغيبه في الاستيلاء عليها، وبعثوا إليه بتقارير خطيرة عن أعمالها وأقاليمها وموارد دخلها، بحيث استطاع الملك فيما بعد وبسهولة أن يوزع تلك الأقاليم على من سيشاركونه حملته القادمة[١].

مثّلت هذه المعاهدة قمة النفوذ الذي وصل إليه عموري في سياسته الخارجية في مصر، مع مراعاة أنه لم يتعرض لضربة قاضية في بلاد الشام كما حدث من قبل، وبالرغم من ذلك فإن رنسمان يقر بأنه كان بوسع عموري الحصول على شروط أفضل بعد صلح الإسكندرية، ولكنه لم يخاطر إلى أبعد من ذلك في مصر، حيث طال غيابه بها ما يزيد عن خمسة أشهر تقريباً، ولذا فقد كان في عوز لإعادة ترتيب وسائل الدفاع عن مملكته، بخاصة عقب تحركات نورالدين الأخيرة[٢]، كما يُعلق بلدوين Baldwin على وضع المملكة في مصر آنذاك بأنه آخذ في الصعود، بيد أن ضعف مصر كان يقابله الطبيعة غير الثابتة لدفاعات الفرنجة في بلاد الشام، مما أذن لبيزنطة بالتدخل[٣]، أما روهرشت فيُلمح إلى أن وجود عموري في مصر بعدئذ كان ظاهرياً لا واقعياً[٤]، ولعله كان يستند إلى محاولات بعض الأفراد المصريين الاتصال بنورالدين من داخل مصر ومن هؤلاء الكامل بن شاور وغيره ممن فضل التعامل مع السنة على

---

(١) عن الاتفاق الثاني المعقود بين عموري وشاور انظر: ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٧٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٣٤٩-٣٥٠؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٨٧؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٣٦٦؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٢، ص٤٤٥.

(٢) رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٦٠٨.

(3) Baldwin, *The Latin*, p.554.

(4) Rohricht, *Amalrich I*, p. 452.

التعامل مع الصليبيين، وعلى الرغم من ذلك فقد ضرب شاور بذلك عرض الحائط في محاولاته للاحتفاظ بمنصبه أياً كانت الوسيلة[١]، وتشير بعض المصادر الأوربية إلى أن شاور لم يكن مخلصاً أيضاً مع الملك عموري ذاته، حيث إنه بعث بالأموال المقررة عام واحد فقط إلى المملكة، ثم خدعها بعدئذ بإرسال مبالغ من النحاس المغطاة بطبقة مذهبة[٢]، وإن لم يجد الباحث إشارة إلى شيء من ذلك لدى وليم الصوري الذي ربما استند إليه في تبريره لتصرف الملك بالقيام بحملة رابعة مفاجئة على مصر فيما بعد.

ولعل أهم ما دونته المصادر الإسلامية عن نتائج هذه الحملة هي ازدياد قوة الطمع في مصر، سواء من المعسكر الصليبي أو الإسلامي[٣]، لاسيما أنهما بقيا بها مدة طويلة، كانت البلاد رهناً لأي إجراء يتخذه الطرفان، بل إن قصر الخليفة - قدس أقداس الفاطميين- أصبح معروفاً لدى الصليبيين[٤]، ناهيك عن أبواب القاهرة وأسوارها وقلعتها، والقرى والمدن التي دارت بها العمليات الحربية، كل ذلك كان في متناول رجال الملك عموري وحفظوه عن ظهر قلب، كما لمسوا الضعف الشديد للقوه العسكرية المصرية، بحيث عجزت بمحالفة الصليبيين عن القضاء على شيركوه وهو في شرذمة من رجاله، فما بالنا إذا ما حاربت وحدها شيركوه بعدئذ، ولذا فقد كان

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٢، ص٤٤٥.راجع كذلك:

Rohricht, *Amalrich I*, p.556.

(2) Albericu, (Mon.Germ.SS, XVIII) (Coated from: Rohricht, *Amalrich I*), p.556.

وبينما يشير أرنول إلى أن المبلغ عشرين ألف دينار فإن رنسمان يشير - عن روبرت التوريني – إلى أنه خمسين ألفاً تدفعها الإسكندرية، إضافة إلى سبعة وخمسين أخرى يحصلون عليها من القاهرة.انظر:

Ernoul, *Chronique*, p.25.

وأيضاً:رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٦٠٨-٦٠٩.

(٣) ابن شداد: النوادر، ص٤٢؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٣٦٧.

(٤) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٥٨.

عموري يمر بلحظات انتصار وقتي، لم يكن ليبقيها سوى يقظة حذرة في رصد أي تغير يطرأ على مجريات الأمور في مصر، بخاصة إذا ما كان في غير صالحه.

أما عن المكاسب اللحظية فيؤكد عمارة اليمني - الشاعر والمؤرخ المعاصر والمقرب من بلاط شاور - اغتراف الملك أموال كثيرة من دخل مصر خلال وجوده بها[1]، ويكفي عموري فخراً لهذه الحملة فرضه لنوع من الحماية على خلافة الفاطميين بالقاهرة، وهو إنجاز لم يكن في حلم بلدوين الأول أن يحققه في منامه، وبعدها عاد الملك إلى المملكة، حيث رافقه شاور حتى بلبيس ثم تحرك الملك وحده إلى المملكة، حيث وصل عسقلان في ٢١من أغسطس١١٦٧م/٤من ذي القعدة ٥٦٢هـ، بينما وصل شيركوه إلى دمشق في ٤من سبتمبر١١٦٧م/١٨من ذي القعدة ٥٦٢هـ، وبذا انتهت المرحلة الأولى من صراع الملك عموري على مصر، التي اضطر خلالها إلى التحرك نحوها وإن لم يكن بيده روح المبادرة، بل كان يتلقاها من الخارج دائماً، وسوف يغلب على سياسته بعدئذ اتخاذه لتلك الروح إضافة إلى وقوف بيزنطة إلى جانبه.

---

(1) عمارة اليمني: النكت العصرية، ص٧٩-٨٠. وعن نجاح حملة الملك هذه المرة انظر تعليقات كل من:

La Monte, *The Lords of Caesarea*, p.150; Baldwin, *The Latin*, pp.552-553; Richard, *Le Royaume Latin*, p.53; King, *Hospitallers*, p.92; Rohricht, *Amalrich I*, pp.450-456.

obeikandl.com